محمد علي الشيخ

العقل لا يكفي

مجموعة قصصية

مطبوعات
PUBLICATIONS

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



محمد علي الشيخ





مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية







الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٥٤٥٥ - هاتف: ٦٤٤٤٤٤٤

العقل لايكفي

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى التي أنقذتني من الجنون مرتين

مرة من نفسي ..

ومرة من فكري ..

إلى زوجتي ..

وأم أولادي ..

أقدم هذه الشرائح من ذاتي ..

المؤلف ..



مقدمة

أقدم نفسي أنا القادم من القرية على جمل هزيل.. لم لا..؟

ماذا أقول..؟

أنا بدوي يعشق التحضر لكنني عاجز عن لي أعناق العمارات الشاهقة.. وتكتيم الضجيج المتمرد.

لا يهم.

الفرق كبير بين التحضر والتمدن.. وعندما أروي حكايتي سيفتحون نوافذهم و يصفون.. لقد تعبوا من عيون الشوارع والصمت المسلح.. لكن.

أليس من الأفضل أن أستعين بأحدهم؟. أوه.. أنا لا أعرفهم.. ألتقي بهم يومياً غير أنني لا أعرفهم.

يكفي.. مللت الانتظار.

سأصرخ..

لا أعتقد أنني سأثير الفزع.. فأنا لا أحمل وجهة نظر جديدة.. أنا ابن المملكة العربية السعودية.. جزء من تاريخها وتطلعاتها..

لا جديد في حياتي.. مثلي مثل شاب ولد على أرض الأمن والايمان.. كل ما أذكره أن الظروف -وهي كلمة ظلمناها كثيراً- قادتني أثناء دراستي بمعهد المعلمين الثانوي بجدة إلى العمل بمكتبة خزام.

آنذاك كان التمرد الفكري واللعبة السياسية يحاولان بشتى الوسائل أن يجدا لهما مكاناً للتفريغ على الساحة العربية ممّا أدى إلى صحوة إسلامية وظفت الدين والتاريخ في عمليات الشحن الفكري والنفسي لتوليد نماذج حية قادرة على المجابهة الفعالة.. مستمدة من تجارب الماضي ومتانة القاعدة ووعيها الذاتي بخطورة الاستلاب وقابلية الأوضاع القائمة للتصحيح.. وكانت مكتبة خزام -أشبه ما تكون بالمكتبة المتخصصة في هذا المجال- تستقبل النتاج الفكري لدعاة الإصلاح.. وتتيح لي حرية الاطلاع عليه بمجانية وغزارة.

أخـذت من التعليم ما يسد حاجة أسرتي واغتصبت كلمة وداع لمدينتي.. والتحقت بـأفواج العاملين لتجسيد طموح قريتي.. غير أنني فقدت «الدعة الفكرية» وأصبحت أكثر وعورة.. وأقل منطقية.. تلك مرحلة..

في العـام ١٣٨٧ هـ. عـام تخرجي، كانت عملية تطعيم التعليم الابتدائي بالخبرات الوافدة لاتزال سياسة تعليمية فرضها المد التعليمي، وعجز الكفاءة الوطنية عن ملاحقته عبر المسـاحـات الواسعة من الصحاري العطشى.. هذه الضرورة جعلت بعض المدارس -ولا يـزال الوضع قائماً هكذا في التعليم ما فوق الابتدائي- شبيهة بقاعات اجتماع مفتوحة تحتضـن تخصصـات مـتعـددة وتجـارب مـتباينة وجنسيات مختلفة،ممّا أكسب المسيرة الـتعـلـيمية معطيات جديدة أطلقت الفكر الوطني من الرؤى الدارجة والمحلية الضيقة. وقد أدى تـقـارب الوقائع سواء أكانت من النوع الثقافي أو من دنيا الحوادث إلى توحيد صيغ التفاهم.

وتلك مرحلة..

هـذه الأوضـاع سـاعـدتـنـي على تـفـهـم لـون عـصـري السادر في الإحراج والانبهار والخـوف.. ومـن ثم انحـصـرت اهـتـمـامـاتي في البحث عن مبررات للفوضى الملتهبة.. وتـصـور سـيـاق مـسـتقر راسخ الدعائم.. في هذا المنعطف تعرفت على مدرس لغة عربية بمـتـوسـطـة خـلـيـص -فلسطيني الجنسية- كان مجموعة من الهوايات أبرزها الرسم والخط والـقـراءة والتصوير.وهي وإن كانت لاترقى إلى مرتبة الاحتراف إلا أنها حبلى بالفكرة والمـغـامـرة في عـالم يجـعـل الـقـضايا الكبرى محسوسة.. تأملت لوحاته ونثرت عليها أسئلة قـصـيرة.. أكثر إلحاحاً كأسئلة طفل.. اعترف لي بأنها حلول بسيطة لمشاكل متعددة.. واتـفق معي بأن الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية عاجزة عن تحديد وجهة نظر أكثر اطمئناناً.. إن قضية الإنسان -على حد تعبيره- هي اكتشاف وسيلة تعبير يمر عبرها رفضه للاستسلام..

هـل وجـدتـهـا؟ سؤال أثار التمرد على دائرة الصمت المغلقة وأغراني بالنزول من التل لمضاجعة الأرض قد تكون شاعراً أو قاصاً ولن يدوم انتظاري طويلاً يا صديقي..

وتلك مرحلة..

بدأت المحاولة.. السير على غير هدى..

الدروب وعرة.. الظلام كثيف.. والرياح غاضبة..

شعرت بأنني ضعيف.. وكل ما سلبته من الحياة عبارة عن ترفيهات صغيرة لم تشبع رغبتي في امتلاك ما هو أساسي فيها.. وتلك النقطة الحرجة والمأساة في حياة الإنسان..

أتكلم أم أصمت..؟

القضية لا تخضع للتقنية..

قدري ينسلخ من التكتيك.. و يرصد الحركة الفاعلة..

حاجتي نمط فكري قادر على التقاط النموذج الرفيع بين الركام الهائل من ثقافات الحماقة والاستلاب.. هذا ما منحني إياه أخي علي الرابغي.. وساعدني على استخدامه الأديب المعروف الأستاذ سباعي عثمان الذي كان -ولا يزال- مشرفاً على الملحق الأدبي بجريدة المدينة.. وكان تعاونهما ظاهرة أثارت اهتمام الأديب والصحفي الأستاذ عبد الله جفري الذي بادر بتسجيلها في جريدة البلاد عدد ٤٤١٧ يوم الخميس الموافق ١٣٩٣/٨/٢هـ: «محمد علي الشيخ كاتب شاب.. صنع له الزميل علي الرابغي عجلات من مطاط ومهد له الزميل سباعي عثمان طريقاً وعراً شائكاً..»

لكن لماذا القصة القصيرة بالذات..؟ ذلك شيء أحجم عن الخوض فيه لأنني أجهله.. فباستثناء النقد الأدبي من جميع الأشكال الأدبية لا تشكل القصة أية دلالة تسهل للباحث الاقتراب من دور ما في تركيبي الثقافي، وما أدركه الآن أن الملحق الأدبي بجريدة المدينة سمح لرغبتي المرنة بالتسلق بحثاً عن الصحو في أفواه البراكين.. وأخلي مدني من التعتيم والألغام والخوف ممّا أتاح لي حرية الرؤية والحركة والأمل.. ووفر وسائل التعرف على نفسي المهاجرة واجتياز حواجز المراهقة على جواد أصيل.. وكان رصيدي القصص القصيرة التالية: «العودة إلى الصحراء» «في متاه الضياع» «أمس وغد» «في جوف الليل» «أموات آخرون» «العقل لا يكفي» «مقاومة أم استسلام» «إني أفهمك» «صورة على جدار التاريخ».

وتلك مرحلة..

وقد وفرت عملية التفريغ هذه متعة السلام وجلال الغاية.. وأدركت أنني أدور مع الكرة الأرضية.. أنني أكثر التصاقاً بالواقع المعاش.. لقد هدأت حالة الاضطراب.. وهاجرت الأسئلة.. ونما الطموح المتعقل تفرزه الأوضاع السائدة وتغذيه التجربة و يشجعه الأصدقاء.. أكملت تعليمي الجامعي.. أعطيته أربع سنوات توّجها حصولي على بكالوريوس في التاريخ من كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

عام ٩٨/٩٧هـ. وتأهلي للدخول في عالم الدراسات العليا. هذه الدراسة بما يصاحبها من منهجية وموضوعية وتجرد جعلتني قريباً من الواقع وأمام ظواهر وصيغ اجتماعية وأساليب تعبير جديدة تختلف عن فترة الطفولة الفكرية وإن كانت لا تقل إغراء وإثارة..

وتلك مرحلة..

أنهيت القصة الأخيرة «صورة على جدار التاريخ» من مجموعتي الأولى والتي نشرت بالملحق الأدبي بجريدة المدينة عدد٣٩٢٦ يوم الأحد الموافق ٢٣ شوال ١٣٩٣هـ بالعبارة التالية: «تعال يا عزيزي.. تعال معي.. سأعلمك ١+١.. سأعلمك كيف تصنع تصميماً لمعمار كبير على سطح الأرض؟. سأعلمك كيف ترسم صورة جميلة خالدة على جدار التاريخ»؟ وملاحظة مثل هذه تستدعي رصد أسباب أكثر نوعية لدراستي وأوثق صلة بطبيعة اتجاهي الفكري..

..إنها سبع سنوات.. نسيج مثقل بالزوايا الحادة.. مرحلة انتقالية..

اقتراح وسائل إيصال وجهة نظر محددة.. امتداد لا يفتقر إلى الجسارة إزاء تعرية العالم وممارسة الاختيار.. إنني أعشق لسعة اليقظة بعد الحلم الطويل..

وأسأل ماذا أريد..؟

لا أدري..

أقرأ تاريخاً.. وأكتب أدباً..

ولا أعفي المهتمين بتاريخ الأدب السعودي من تفتيت عالمي..

محمد علي الشيخ
١٤٠١/١١/٢٤هـ



العودة إلى الصحراء

العودة إلى الصحراء

هنا نقف ولا بد لنا من الانتظار.. فالسهل واسع ممتد كامتداد الأمل.. والجبل البعيد هناك ينتصب في كبرياء عنيد.. وحياة هذا وذاك جزء من حياة الوادي.. حياة تختلط فيها الحقائق بالأساطير. والبيوت ضائعة.. مجتمعة في وحدات شبيهة بأكوام من الصوف والقش والطين. وهي في وضعها هذا كأنها تفكر في خطة للدفاع.. أو هي ترصد مصير كائن ما.

وعندما يبتسم الصباح وتستعرض الطبيعة مفاتنها يكون الزمن قد أعلن بدء الحركة.. فلاح يحمل معوله ووراءه ابنه.. وثان يركب حماره.. وآخر يجر بقرته.. أما الحقول فهي هناك تستقبل أمواج السائرين. وكان العمل غاضباً.. فهو اليوم أصعب مراساً منه في أيام خلت.

بالأمس كانت الحياة باردة ساكنة، دون طعم.. دون لون، دون ظل.... ومعدة الإنسان جائعة تبحث عن الطعام.. وأفكاره وعواطفه وانفعالاته آلات مسخرة في سبيل

الحصول عليه.. أما اليوم فقد تغير وجه الحياة.. نعم تغير.. و يزحف العالم بضجيجه وصخبه إلى كل مكان حتى... حتى القرية المنعزلة هناك... لقد عاش هذه الحياة... عاشها كلها من آخر مرحلة وصلها القديم حتى آخر مرحلة انتهى إليها الجديد.. إنها حياة لا تعرف الجمود، ولا تكف عن الحركة.. لكن عندما تنمو الحياة، في كل مكان وفي كل زمان يذهب الناس ضحايا للمرض والجنون، والتفسخ السريع.

هذا شيء.. وشيء آخر.. هو: إذا كانت مظاهر حياة ما تتسم بالبساطة فإن هذا لا يعني أن الحياة بسيطة في جوهرها.. فهناك أشياء كثيرة لا تطفو على السطح.

كان ذهنه قد انشغل بذهابها.. إلى أين..؟ هل تعود؟ وطمحت أحلامه إلى إرضائه، ولكن هيهات.. إن بقايا من العصور الأولى لاتزال واعية حتى الآن..

وقتها كان يحضر لرفاقه أدوات اللعب و يقترح عليهم أحياناً أن يلعبوا هذه اللعبة أو تلك... و يلعبون، و يدعونه للعب معهم... لكنه لم يلعب أبداً... كان يتابعهم بعينيه و يطل عليهم من العالم البعيد، البعيد.

لماذا يهرب من واقعه...؟ لماذا يحاول الهرب من ذاته..؟ وعلى نحو غامض كانت فكرة ما تسري إلى عقله الصغير، ثم تتكثف في شيء من الصراع.. وترسم في خياله ألف صورة بلون الضباب.. لكن هذه الصور لا تلبث أن تذوب دون أن تتلاشى نهائياً.. لتنمو من جديد.. إن أخته الصغيرة قد ماتت..، هذه قضيته الآنية...، و يبقى هنا الشيوخ المسنون، الذين امتلأت رؤوسهم بالخبرة المحلية. فانفعالاتهم تتغير في عوالمهم الداخلية فقط... دون الظهور إلى العالم المنظور.. وهم عندما يشاهدون شاباً يحاول الخروج من سجن الروتين اليومي فإنهم ينظرون إليه نظرتهم إلى كل طارىء جديد على عرفهم الموروث، ويهزون رؤوسهم كأنهم يقولون: «احسب خط الرجعة» «سيكشفك الزمن».

و يطلون مثل قائد في قلعة محاصرة.

هؤلاء يصفونه بالرجولة المبكرة لأنهم يجعلون ما تعارفوا عليه من عادات وتقاليد محكاً صالحاً لاستقامة هذا السلوك وهذا التصرف، أو انحرافه، ولا ريب أن سلوكه وتصرفاته كانت تتسم بالاتزان الهادىء. لكن من يعرف ما يدور في الأعماق.. وربما كانت الحقيقة ضرباً من الوهم.

لازم والده في البيت، ولبث معه في الطريق، وفي الحقل يشاركه بعض أعماله، وكان هذا كافياً لعقله الصغير لأن يدرك أشياء... وأشياء كثيرة لها صلة بحياة والده وحياته، إن لم نقل بحياة أهل القرية كلها. لقد أحاط بأبعاد دنيا أبيه وسبر أغوارها ومن ثم توسعت تصوراته. لكنها بدل أن تقنعه وترضيه غذت أفكاره بالطموح إلى التغيير... ويحملق القديم بكل ضراوته وعناده، و يلح الجديد بكل أساليبه ومغرياته، و ينصت الزمن، و يصفي حسابه مع الآخرين، ثم يعود، و يسير المجتمع سريعاً إلى التعقيد.. وتفر العقول الناشئة الغضة إلى الأحضان الطرية الهادئة. وتشعر بعض الأمهات -إن لم نقل كلهن- بأشياء مبهمة تحثهن على رعاية أبنائهن. وربما كان الخوف المتولد في أعماقهن من التنقل ينعكس حتى على التربية.

تختلف الأجواء باختلاف البيوت، ولكن أمه تحت تسلط واستبداد أبيه لم تجد غير الانشغال بأشياء أكبر من أبيه. أشياء لا ترحم أباه.. وربما كانت تجرب تأثيرها على طفلها ويحلو لها أن تشاهد ردود الفعل لتتأكد من أن لها وجوداً بالفعل.

وهكذا تكلمت الأم: تحت الأرض... وفي ذاك المكان.. وهناك وراء الجبل.. تعيش الشياطين. وتابعت: «في ليلة مظلمة من ليالي الشتاء، والرياح غاضبة تعصف بعنف..» وأكمل صوت الأم حديثه، لكن دون أن يعي منه شيئاً... لقد نظر إلى الظلام المعشش في زوايا البيت.. ونظر إلى الأشكال القلقة التي رسمها مصباح النور على الجدران.. وسرت إلى ذهنه موجة من الأفكار المرتعشة اللذيذة.. وتساءل: «أهناك أشياء كثيرة لا تخضع للمنطق والتجربة؟» ورسم خياله أشكالاً كاريكاتورية كأنه يريد أن يخرجهم من عالمهم الوهمي إلى عالم الحس. ولعلهم يفعلون ذلك لتكون نهايتهم.. وأسس لخياله قياداً.. وظل يجدف في زورقه الحائر بعيداً عن الشاطىء الآمن.. وحين حلت الآلة محل اليد البشرية... وحلت المدرسة الحديثة محل الكتاب القديم، ذلت الأرض تحت وطأة الجديد، وتفتحت العقول من أول كلمة، لكن ما أكثر من عاشوا على هذه الأرض ودفنوا في جوفها دون أن يعرف العالم عنهم شيئاً!. أي شيء.. لقد ماتوا كما كانوا يعيشون في هدوء ودون ضجيج.. وما أكثر من عاشوا بالكلمة، وماتوا بالكلمة وهم أحياء مخلدون يقوم العالم على أكتافهم!. تلك حياة، وحياة على اختلاف في الدرجة كبير.. هؤلاء يحيون ليعيشوا... وهؤلاء يعيشون ليحيوا.. ولا فرق.. ربما.. فالفروق تتساوى أحياناً..

التحق بالمدرسة الحكومية.. ولا يزال يذكر ذلك الطريق الطويل المؤدي إلى المزرعة، ويذكر أنه اقترح على أبيه أن يعلمه دونما حاجة إلى أن يتعلم على يد أحد، لكن والده صمم على دخوله المدرسة.. وهكذا مات رأيه تحت إرادة أبيه.. دخل المدرسة، وعاش واستمر محتفظاً بسمة الرجولة وأجنحة الخيال، ومرت الأيام بطيئة جداً... سريعة جداً دون تناقض.. لقد وضعت اليد ووضع الكتاب في رصيد تجارب الإنسانية في تاريخها الطويل.. وتحرك الموكب وأخذ يبتعد عن الحياة العامة بمقدار ابتعاده عن نفسه أو ـ وهذا الأصح ـ كلما أطال الحديث مع نفسه.

ولكن هل يستطيع الإنسان أن يستكمل صورته؟.. هل يعيش لوحده؟ أم يعيش في حياة الآخرين.. كان أحد أساتذته معجزة في نظر القرويين، فهو يحفظ الأخبار ـ على حد قولهم ـ وحتى صوته كان شبيهاً بصوت (الراديو) نفسه.

إن الأشياء البعيدة تكون صعبة المنال أحياناً، ومع ذلك فهي قريبة إلى النفس حتى أبعد حد، وكذلك الأشياء المجهولة والجديدة أيضاً.. الصورة التي رآها في إحدى المجلات التي كان أستاذه يتصفحها لا ينساها أبداً.. فتاة في سن إحدى أخواته، لكنها تختلف عنها في كل شيء.. في كل شيء.. إنها صورة متحركة وفي وضوح حي متحرر، وتحركت إرادته لكنها كانت ضعيفة واهية.. أراد أن يسأل أستاذه.. ما هذه؟ وتردد، ثم أجاب من تلقاء نفسه: «لعلها من الجنة» وارتسمت في هذه علامة الاستفهام.. كبرت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت إطاراً للكون والطبيعة والحياة.. وطافت بنفسه ظلال قديمة، وسمع همسات من صوت قديم.. لكن النداء لم يسكت أبداً.. وربما لن يسكت أبداً.. إنه لم يعد عضواً فعالاً في الأسرة بعد التحاقه بالمدرسة.. وهذا شيء يندر وجوده في مثل تلك البيئة، وأمام هذا الفراغ الكبير انطلقت أفكاره في كل جهة إلى فضاء لا نهاية له..

ونحن حين نسأل: هل تكفي حياة واحدة..؟ أين توجد الحقيقة..؟ كيف تكون حياة الآخرين..؟.. نحن حيناً نحب اللذة.. وحيناً نحب الألم.. لكننا لا نتوقع أن نعيشها.. وحيناً نريد أن نعرف ماهية السراب.. وحيناً نؤمن بأن هناك شيئاً مجهولاً.. وحيناً تستهوينا الحياة ونخضع للمشاركة الوجدانية.. وحيناً ينزع ميلنا الفطري إلى استطلاع ما وراء الأفق.. وحيناً نريد تعويضاً عن شيء خسرناه... ما هو؟.. لا يهم..

إننا نقرأ، وكذلك قرأ.. وكذلك تابع تعليمه.. وفي هذه الأيام الأخيرة شوهد مع أصدقائه الثلاثة، وهم يترددون هناك.. على الصخور، في الطرقات.. حول الحقول.. لكنهم كانوا يكثرون التردد على صاحب المقهى الجديد. كان يروي لهم مغامراته الواسعة في عرض البحر... رحلاته إلى السودان والحبشة... إنها حكايات لا تنتهي.. كانوا ينظرون إليه مثل سندباد تمرد على عالم الأحلام ليعود إلى الواقع من جديد، فكم تعرض للقراصنة ونجا بقوته.. وتعرض للأمواج ونجا بمهارته، وتعرض لحوادث أخرى كثيرة.. نجا منها بقدرة الله.. لقد عاش مع «الكفار» وشاهد الحوت الذي التهم النبي يونس.. إنها حكايات لا تنتهي.. لكن من هم أصدقاؤه الثلاثة؟

الأول كان قد تعرض لحادث سيارة أثناء ذهابه إلى المدينة لأول مرة.. فهويمشي أعرج.. أو كالأعرج.. وهو أكبرهم وهو أقساهم وأعنفهم.

والثاني ترك المدرسة بعد أن توفي والده وهو أوسطهم وهو أشقاهم..

والثالث عميت عينه إثر إصابته بالرمد، وهو أصغرهم وهو أكثرهم نصيباً من الضحك والتنكيت وتنطوي الأشياء في شيء،وكأنها ذلك الشيء نفسه.. «عنف... وشقاء... وفكاهة..»

من يستطيع أن يجسد هذه الأشياء في صورة نابضة بالحياة غير الفنان...؟ من يستطيع أن يصل بهذه الأشياء إلى نقطة واحدة غير الفيلسوف؟.. من يستطيع أن ينظر من خلال هذه الأشياء إلى الألم النازع إلى التعويض غير العالم..؟

لكننا لسنا أمام فنان، وفيلسوف.. ولا عالم.. إننا أمام إنسان..

هناك أشياء عملاقة تبدو للعقل هزيلة واهية.. وهي ليست كذلك.

وهكذا تفتحت نفسه على العالم والحياة.. عالم يعرفه كله.. وحياة هي جزء من حياته. وإذا كانت الدنيا فيلماً سينمائياً فهل نتأثر بالأشياء والأشخاص والمؤلف؟

نعم.. وسر الشقاء يكمن في السعادة نفسها.. وهذه حقيقة.. لقد رآها فجأة.. أبوها لم يغادر الحياة إلى حيث لا يعودون مرة أخرى.. لكنه لا يعيش معها.. لقد طلق أمها.. وتركها تحيا في يد حنان واحدة.. ما أتعسنا في الحياة وما أجمل أن نكون أحياء! تزوجت أمها ووفدت على القرية مع زوجها الجديد.. وابنتها الوحيدة.. وأخذت الفتاة الصغيرة تتردد على أمه وتشاركها بعض أعمال البيت البسيطة.. لقد كان الفراغ يملأ

قلب أمه.. لقد كانت في فراغ دائم.. تملأه بالمشاو ير الكثيرة، والحكايات الكثيرة.. لقد كانت بحاجة إلى فتاة صغيرة.. وقلب كبير.. و بين الحين والآخر كان يراها، لكنه لم يتلمس الحيز الذي كانت تشغله... كان في البيت مشغولاً بالقراءة، وفي المدرسة بالدراسة.. وعندما يكون ثمة وقت آخر فإن له من أصدقائه عالماً تنطوي أبعاده في نفسه..

وذات يوم رجع من المدرسة فرأى أمه جالسة بجانب الفتاة الصغيرة.. ودار حديث طو يل كانت أمه تبكي في صمت.. واقترب أكثر.. وأنصت.. لقد عرف ما وراء الحديث.. من خشوع الأيدي.. من انطباعات الوجوه.. من العيون الدامعة.. إن المؤشر الذي يتحرك على الساعة يتحرك على النفوس أيضاً..

لقد رآها.. الآن بكل إحساساته ومشاعره.. واندفعت انفعالاته بعنف نحو نقطة بعيدة.. على خط طو يل.. إن الإنسان ليسمو على حقيقته ليعرف كل شيء.. وعرف النهاية.. إن أباها أتى ليأخذها فجأة.. وتمنى من أعماقه لو تعود معه.. لقد رآها.. وفقدها.. فجأة.. لو تعود..

ومرت الأيام والتحق بمعهد إعداد المعلمين.. وهناك فاجأته التغيرات التي ترافق التحول من مجتمع إلى مجتمع أكثر تمدناً.. بالرغم من أنها لا تشكل بسرعة لأنها تلد في الأعماق أولاً.. ثم تطفو على السطح.. ثم تضرب بجذورها إلى البعيد.. البعيد.. وتبقى حيث هي لتعمل من وراء ستار من الحيرة والتساؤل والرغبة والميل الطبيعي إلى التكيف مع البيئة الجديدة..

لقد لفت نظره أشياء كثيرة في المدينة.. لكن انتباهه لم يتركز إلا على المباني الضخمة والمصانع الضخمة.. وليس هذا ناشئاً عن مظهرها، لكنه ينحدر على حقيقة هامة، ذلك أنه كان يسأل في صمت عن طبيعة الحياة داخل هذه الجدران الملساء الناعمة، تلك الحياة التي لا يعرف عنها شيئاً سوى أنها حياة.. وهذه الحركة المتفجرة في المصانع التي لا تعرف الأعياد ولا تعرف الراحة.. ما هي؟

الإنسان أقوى أم الآلة..؟ سؤال نبت في ذهنه.. وجاءه الجواب كصدى هاتف: «كلاهما جبار يسير في طر يقين متقار بين جدا، متباعدين جداً..».

كان يسأل في صمت، فتتوافد عليه آلاف الصور والمشاعر والانفعالات.. و يفكر..

هناك أعضاء الثالوث المميت.. يحاصرون الإنسان، ليعيش في عزلة بعيداً عن مواعيد العالم وصخبه ورغوته اللزجة.. بعيداً هناك.. حيث لا يرى شيئاً.. أي شيء بعيد هناك حيث يحيا.. دون لون.. دون ظل.. دون شيء.. و يفكر..

كانت ملايين الأحلام تحف بأشياء غير منظورة، سوف يحكي لهم كل شيء.. وإحساساته.. لكنه كان هو نفسه لا يعرف تلك الأشياء.. وفي أسواق المدينة كان يتردد على المكتبات، وكان العنوان أحياناً.. وكانت مقدمة الناشر أحياناً سبيله إلى معرفة الكتاب.. دون أن يتصفحه أو تكون لديه فكرة عنه مسبقة..

ما أحوجنا إلى الشيء الذي نحسّه حين نكون في حاجة إليه!. أي الأشياء أقرب إلى نفوسنا تلك التي نحبها؟ أم تلك التي نكرهها؟

نحن لا ندري.. لكن ما دام هذا الكوكب الصغير صالحاً للحياة.. فإن حياة كل شيء فيه هي جزء من حياتنا..

إذن.. هل الأفضل أن نراقب صراع الأشياء مع الحياة لقاء رعشة عاطفية واحدة؟. أم الأفضل أن نشاركها عبثها وأهواءها وقلقها.. نحن لا ندري.. لكن في كلتا الحالتين نحن أمام الحياة.. واعترافنا بوجود الخير هو بالذات اعتراف بوجود الشر...

— من؟.. كان شخصاً ما قد فتح الباب.. ودخل دون أن يقول حتى كلمة.. وتعانقا عناقاً أخو ياً حاراً..

— كيف... كيف عرفت أني هنا..؟ يا راشد.

— أترك هذا الحديث لوقت آخر. وقل لي:

— كيف الحياة معاك؟

— كتب ودروس ومطالعات.. و.. ألا تذكر أيامنا في القر ية..؟

— طبعاً.. طبعاً..

— لقد عرفت من آخر رسالة وصلتني.. أن الحكومة أنشأت مدرسة ابتدائية بالإضافة إلى الأولى ومدرسة بنات.. و وحدة زراعية.. وأنها أيضاً سوف تطور المستوصف إلى مستشفى.. كل هذا خلال سنة واحدة.. إن مشوارنا طو يل.. طو يل..

— أما أنا فلا أحب المراسلة..

— لماذا؟

— المدينة .. المدينة .. أليست الحياة فيها جميلة كجمال الشمس..؟
— لا شيء هنا يزعجني.. اللهم إلا الامتحانات..
— كنت أتصور أنني سأجد عندك لهواً وحياة مليئة بالبهجة.
— لا.. لا يوجد هنا غير الكتب.. وراديو الترانزستور..

قالها بعنف وتناول أحد الكتب المكدسة أمامه، وأنشأ يخبىء نظراته بين الصفحات.

— أخي.. إني في ضائقة مالية.. لقد بعثرت كل نقودي.

كانت كلمة أخي قد احتضنت أعماقه.. وفتحت نافذة أطل منها وجه جميل يعرفه ونهض وفتح أحد أدراج مكتبه وأعطاه (٥٠٠ ريال) كل هذا تم في لحظة.. لحظة واحدة.

— لكن كيف عرفت أني هنا.؟
— اترك هذا الحديث آخر.

وخرج مثلما دخل حتى دون كلام..

إنه لا يعرف إلا صوراً ممسوخة.. عاطلة عن الحركة.. لمثل هذه الأشياء.. أما المعالم الحسّية التي تتمدد عليها مثل هذه الأشياء، فهي لم تنطبع على عقله الواعي..

صحيح إنه كان يرى ملامح باهتة رثة خلال مطالعاته للقصص الغرامية لكنها إثارة جوفاء كفقاعة الصابون لا تلبث أن تتلاشى تحت غطاء كثيف من ثروته النفسية..

إن معرفتنا لجزء من الحقيقة لا يعني أننا نعرف الحقيقة كلها.. فنحن لا نعرف أن هناك أشياء موجودة إلا إذا عرفنا أن خصائصها هي نفس خصائص الشيء الذي عرفته بالمشاهدة والملاحظة والتجربة.. وطريقنا إلى الواقع هو فرع من طريقنا إلى المثال.

لم يكن يتوقع أن الأسطورة تمثل على مسرح الحياة وإن كان يؤمن بوجودها.. لكن حتى هنا.. توجد هنا فعلاً..؟ وإنسان ما.؟ أنا أعرفه... هو.. لا.. لا.. أنا لا أصدق.. مستحيل.. ولكن.. هو.. هو بنفسه.. أنا أعرفه..

ورجع إلى أيام زمان.. إلى الحياة البسيطة.. وتمنى لو يعود.. ليقول له شيئاً.. أي شيء.. لعله ينتهي..

كان هذا النوع من الحياة كالأسطورة تماماً .. سيان تكون أم لا تكون.. فإن تيار الحياة لن ينجرف أبداً.. هذه الفكرة كانت منزوية تحت رواسب اللاشعور.. وهناك فكرة أخرى ساخطة لاهبة.. ذلك أنه لم يتصور أن الحياة المتهتكة يمكن أن توجد.. وتستمر تحت السماء.

٢٥ رجب ١٣٩٢هـ



في متاهة الضياع

في متاه الضياع

بين الأشـيـاء الممزقة لمعالم زمن.. زمن هو منذثر الآن.. وهو لا يزال حياً في أعماقه حتـى الآن. كـان يـنـتـقـل هنا وهناك ماداً خطواته إلى حيث النهايات.. لا نهايات.. الحـيـاة تـسير.. الـعـالم.. الأشياء.. وهو ونحن نسير إلى غاية يجهلها العلم البشري.. أنا أحـب.. أنـا أر يـد.. هذه ـ الأنا ـ لم يبق لها إلا وجود باهت في عالمه اللامنظور كأحلام الـفـقير تحـت أشـعـة الشمس.. وجود يتطلع إلى معطيات واقع جاثم في ذهول غر يب.. فـالـفروض التي بنى عليها بقاؤه واستمراره هي الآن لا شيء.. وهي كل شيء.. حشد مـن الـصـور يجتاح عقله.. آلاف من العواطف والانفعالات وتيار من الشعور يولد ويموت ليبدأ الحياة من جديد.. كل هذا دون تغير ملموس.. إنما كالروح التي ينفخها الطفل في جـسـد دمـيـة مـيـتـة.. ولـولا حـركات قدميه وهو يقطع الشارع ـ ونادراً ما يفعل ـ لكان رقم ١٠٠١ في فئة من نسميهم ـ على حد قوله: خطأ ـ بالأموات ـ وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان بقيتا من وسائل تفاهمه الكثيرة مع بني الإنسان..

أي حـيـاة حـافـلـة بـألم مـوهـوم ولـذة موهومة في وجود غير فعلي.. هي حياة مومياء الأساطير،هذا إذا كان ثمة حياة لأشياء معدومة.. المخطوطة الوحيدة التي تركها والده في

رحلته الأخيرة للعالم الثاني.. لقد تركت أثراً على أفكاره صلباً جامداً.. وشكلت حياة مبتورة لا تتكيف مع هذا التجمع الاحيائي الكبير.. لقد كانت نداءات حرة طليقة -يكون البشر ما يريدون.. هنا ممكن وعندئذ لا يموتون أبداً- كل ما في يدي هو ملكي.. وما أجمعه أضيفه إلى يدي.. ومن ثم لا شيء يمنعني عن أن أمتلك ما أريد.. لأنني سأكون قوياً.. عندما أسود العالم فسيعترف بي للمرة بعد الأولى.. وبسرعة.. ذلك لأنني عشت في الغابة كثيراً.. نداءات حرة طليقة وضعت اللمسة الأخيرة أول مرة على حياته عندما كان شاباً مراهقاً لا تسع أحلامه دنياه الواسعة،لكنها حملت الموت إلى قلب خافق مرات ومرات.. لا يموتون أبداً في ظل هذا الموت الذي لا يموت ظل،يغذي نفسه برؤى بعيدة و يبحث عن مأوى لآماله الساهرة الحيرى..

رحلت إلى ألمانيا.. ثم إلى أمريكا.. و.. و..

— كلنا رحلنا إلى ألمانيا.. وأمريكا.. و.. و.. ثم ماذا؟

— كنت أبحث عن أشياء ضائعة.

— ووجدتها أخيراً.

— لا ... كلما اقتربت منها ازدادت بعداً.

— وفي تناسب طردي.

— لن أموت..

— ولكنك تموت مرتين..

— إني أفكر..

— وفي أشياء أكبر منك..

وعاودته تلك الابتسامة المريرة الحزينة وتألق شبح الموت في أحداق عينيه.. ولم يكن يثير فيه هذا التهكم الصريح الساخر أكثر من هذا.. وتركه صديقه دون مواساة.. دون كلمة.. دون شيء ما.. أي شيء.. تركه وهو يهمهم بلغة البشر الأولى.. لن أموت..

— أحبك.. أنا النور الذي يولد فيك.. أنا كل شيء لكنه لك.. أنا أحبك.. وخلقت لك.. ولتكون أكثر من واحد..

— لكن هذا لا يكفي.

— إني أفهمك..

هذا الرباط المقدس -تاريخ الولادة الإنسانية- لم يعد له وجود في وجوده،لقد

ألغاه.. في أعماقه يتحرك شيء ما.. موجة حائرة.. إعصار مخيف.. شيء ما يتحرك.. يركض إلى شيء ما.. وعلى الطريق تنمحي معالم الطريق و يبقى الليل.. لا شيء غير الليل يحتفظ بكلمة السر ويخلع على العالم أزياء الظلام.. ولكن.. لا.. لن تكون الظلمة طريقاً إلى النور.. لن تكون..

الرجل الذي كان بالأمس قوة مستمرة.. يعيش بعيداً رمزاً للفناء.. يعيش دون زمن.. حتى دون مكان.. المرأة التي كانت بالأمس حقيقة حية تنسحب من كيانه.. تنسحب بكلمة.. كلمة واحدة.. وهو أحوج ما يكون إلى الحقيقة.. وهي في حاجة إلى حياة حقيقية..

— إلى أين أيها المسير؟

— إلى حيث لا تقوى على السير..

تلك البداية والنهاية دون حد فاصل.. إنهما صورتان.. صورتان لا غير.. صورة الرجل الذي يريد هو أن يكون صورة منه، وصورة المرأة التي نريد نحن أن تكون صورة منا.. صورتان لا غير.. إما أن نولد ونموت، وإما أن نموت ونولد.. ولا وسط بين الحالتين.. وعندما تموت الجذور تموت الشجرة أيضاً.. وتتلاشى حركة النفس أمام التحدي الكبير..

أشياؤه التي عاش حياتها تلك جزءاً.. جزءاً.. أصبحت صوراً ممسوحة عاطلة عن الكلام.. وتشير له بألف وعد وهي عاجزة عن اللقاء.. آماله.. أحلامه.. أمانيه.. بدأت تنتشر في أمكنة الضغط الخفيف.. وبدأ يدرك مصيرها على نحو غامض.. مصيرها أن تنتهي هكذا فجأة.. لماذا نبكي بينما يضحك آخرون؟... ذاك سر.. بل لماذا نريد أن نموت و يفر منا الموت؟.. ذاك سر.. ولن يفهم السر.. ذلك لأنه يفكر في أشياء أكبر منه..

عندما يصل إلى هذه النقطة يعتريه ذاك الأنين المكتوم المبطن بالاستغراب الخفي... ذاك الذي أكثر من أن يوصف.. أو يغني.. ذاك الأنين الذي تحس به فتاة جميلة تسقط على صدرها الناهد كتلة صخرية من تمثال أبي الهول وهي واقفة تسأله أخبار الزمان... حيث يقف الموت أمام الحياة، وكلاهما غير قادر على واجهة العطاء.. ويجر الآه ـ كما أخرجها ـ إنسان الحجر.. يجرها ـ إنسان الذرة ـ دون فارق ما في المدلول أو التجربة.. و ينقطع عن العمل.. و يعتزل المجتمع.. و يبقى ملفوفاً على نفسه.. في

انطواء كوني.. في كون أشد انطواء.. ويحيا حياة خاصة.. خاصة به وحده..

— أتمنى لو كان لك ثلاث عيون.

— من الأفضل أن أعيش بعين واحدة.

— أتمنى لو كانت لك عين فنان.. وعين فيلسوف.. وعين عالم..

— من الأفضل ألاّ أبصر النور.

— من الأفضل أن ترقد في جوف الظلام إلى الأبد.

و يتطلع إليه صديقه، كان قد زوى ما بين عينيه.. يحملق في آماد بعيدة وراء ستار من الألم.. ولعله يسأل: «أيموتون..؟» وكانت أغطية الصمت كثيفة.. أكبر من أن تزاح أو تمزق.. أو يخترقها شعاع.. لقد أخطأ المعلم الأول حين أراد للعقل أن يتمرغ بتراب الأرض ـ اعرف نفسك ـ أنا لم أشعر بسيطرة الغرائز.. ولن أنزل من السماء.. إن ما سطره العقل على الصفحات ليبرهن على أن الشمعة مضيئة أبداً.. أو هو يتحدى أن الشمعة لا تموت أبداً.. لأقوى من أن يحرقه ذوو العاهات أو يرميه عشاق ـ لوجيا ـ في مياه المحيطات... أنا ابن الإنسان.. لا.. وألف لا.. وليس بالعلم وحده نحيا..

— أما آن لك أن تعود.

— ليس لي أمل في العودة.

— أما آن لك أن تعود حيث البشر في انتظارك.

— إني أملأ قلوب البشر..

— ولكنك لن تصنع التاريخ..

— ليتني أعرف كيف صنع التاريخ؟. ليتني.. وهذا يكفي..

— ولا يكفي أن تحيا بين جدران خرساء تناجي الحياة بكلمات الموت..

هذا لا يكفي يا صديقي.. إن الأشياء التي تبحث عنها.. أشياء تفوق المعارف الإنسانية.. إنها أشياء تلوح في الأفق ولكنها لم تبرح الأرض.. وأظنك لن تبرح الأرض.. ولن تبصر الشاطىء الآمن.. وتمزق آخر جزء من الشراع.. ودار القارب على نفسه إثر ضربة ريح طائشة والتهمته موجة.. وضاع.. وصمت كل شيء.. ضاع ولم يكن موجوداً إلا في متاهات الضياع..

٢٢ رمضان ١٣٩٢هـ





أمس.. وغد..

أمس.. وغد

المكان صخرة ما من جبال السروات،كان الرجل جالساً على شكل علامة استفهام.. ذلك هو «أبوعمار» الرجل الذي تعرفه هذه البقعة النائية لأنهما ولدا معاً وعاشا معاً، كلاهما يتوسد يد الآخر.. وكلاهما تاريخ لحياة الآخر.. الآلات والرجال ـأشباه الآلاتـ يختلطون دون نظام، ويعملون دونما غاية محدودة.. آلات من كل نوع.. رجال من كل جنس.. خط أبيض هنا وآخر هناك.. وحديد وأخشاب وأكوام من الاسفلت، وحركة دائبة مستمرة على طول الجبل وأجزاء السهل الفسيح.. وكان أربعة شبان يتحدثون..

— إنها خطوة واسعة وجريئة.. لقد كنا نعرف أن هذا سيكون.. وإن كنا نتوقع أنه سيكون هنا.. وفي يوم قريب.. قريب جداً..

— أتمنى لو كنت أنا صاحب الفكرة.

— لقد آن للقرية أن تتصل اتصالاً مباشراً وسريعاً بالمدينة.. ولم نعد في عزلة..

— وستفتح ذراعيها لاستقبال هدايا العالم المفتوح.

وضحكوا .. وتابعوا مسيرتهم ينثرون تصوراتهم على طول منشآت الخط الجديد، وهدرت آلة ميكانيكية،وارتفع صوت مزعج ردده الجبل،فانتشر على السفوح و بطن الجبل.. وفي قلب الواحة أمسك فلاح معوله وضرب الأرض بقوة.. وتفرقت شياه راع تولد فيها الخوف على سفح الجبل.. و بدأت الطيور تحلق في الارتفاع متجمعة.. كأنها تستعد لهجرة شاقة في مسير طو يل إلى أمكنة لم تخلق حتى الآن.. و يقوى العمل.. و يشتد أكثر فأكثر.. وفي عنف وصخب وضجيج.. وتغوص أفكار «أبي عمار» ولكن في رقة ووداعة وتسليم.. ولا شيء غير التساؤلات.. ولا جواب على الحيرة إلا أن نكون حيارى.. بصماته على كل شبر من هذه الأرض.. عرقه.. دمه في كل ذرة من تراب هذه الأرض..

وكان آباؤه وأجداده كذلك.. وعمروا الأرض ما عمروها.. وآمال للصغار تعشش بين أعواد الذرة.. وجذوع النخيل.. وكأن الجميع كانوا هناك منذ الأزل يتوارثون الصراع من أجل مصير يتحرك على خيط واه بين حياة وموت.. مؤونة وآلات ورجال يتحدّون الطبيعة كما كان هو.. ولكن «أبا عمار» لن يتنازل عن حقوقه.. وقد كسب الصراع..

إلهي - لو سار العالم في اتجاه آخر لكان أفضل.. وكان العالم يسير هنا.. يحطم الصخور.. يشق الجبل.. يزرع الحياة.. وثمة خلق جديد هناك.. وأبوعمار وأشياء أبي عمار ينتظرون وجوداً آخر.. مصيراً.. معجزة.. حياة جديدة، أو رحلة لا يعودون منها.

كان يحرث الأرض في حدود إمكانياته و يزرع ويحصد وفي أقرب وقت.. وكان يحدد مستقبل أبنائه مثلما يحدد علاقاته مع رجال القر ية.. وكان كل شيء يكون كما ير يده أن يكون، في هذا النطاق الضيق انحصرت تجارب أبي عمار،وفي هذا النطاق الضيق تعلم الأنانية المغرقة في الفردية.. وحكم على الأشياء بمثل القسوة التي تعلم بها الأشياء.. لن تكون ثمة فائدة من كل هذا غير ضياع الوقت والجهد والمال.. ولن تكون ثمة فائدة غير ضياعنا في النهاية.

«خط مسفلت».. وعبر الجبل مزارعنا، وسيارات تنقل أبناءنا إلى المدينة إلى حيث لا يعودون أبداً.. إنها مرحلة من الجنون تصل حد الخطورة وتستحق أقسى العقوبات.. إنها تدخّل في شؤونه واعتداء على حر يته.. وفكر أبوعمار.. وكأن هناك شيئاً ما ير يد أن يقوله أو هو ير يد أن يعمله.. شيء ما أكبر من أن يقال أو يعمل.. و وجد نفسه

تلقائياً يردد: «وفوق كل ذي علم عليم». ونهض.. ومشى خطوة خطوة.. كان يستعيد ذكرياته أو هو يحصي المآثر التي أسداها إلى أمه الأرض.. و«فوق كل ذي علم عليم» كان حدسه يعمل كتفكير منطقي.

ليس ثمة فائدة.. فابن بياع المواشي «تعلم في مدرستهم»ثم ذهب إلى أرض بعيدة ولم يعد.. وليس ثمة أمل في العودة.. «وابن السيد علي» عاد.. ولكن ليس كما يعود الرجال.. لقد كانت بصحبته امرأة وليست هي كما تكون النساء.. وخسر الاثنان.. ولا يريد أن يخسر هو.

— لماذا يموت جارنا يا أبي.؟

— لأن الناس يموتون.

— لماذا يعملون يا أبي.؟

— لأنهم يعملون.

ومسح على رأس ابنه.. وأشار إلى حيث يعملون، سوف ينتزعه من المدرسة حالما يتعلم الكتابة والحساب.. سوف.. وزاد تصميمه حدة.. وتشبعت إرادته بالعناد.. ونهر ابنه: «صه». ولم يكن أبو عمار يعرف أن الغد يتألق في عيون الأطفال.

ومر يوم وثان.. وآخر.. وأبو عمار يتابع العمل بكيانه كله.. ويخطىء من يظن أن (أبا عمار) مدفوع بالضرورة إلى دوام المتابعة وهذا التفكير المرهق.. هناك أشياء في جوفه.. أشياء وراءه.. وأشياء أمامه انسابت إلى كل خلية من جسمه، وتغلغلت في أعمق أعماقه ضاربة بجذورها إلى البعيد البعيد.. وهيهات أن ينتزعوا من أمه الأرض.. وهيهات أن يتخلى عن معطيات وجوده.. ولذا «فأبو عمار» يستجيب لو تحرك الكلم على الشفاه.

— إنه لن يترك أرضه.. هكذا خاطب الجمع «أبو عمار».

وهز الجميع رؤوسهم واندلع الدخان من فم الكوخ كأنه آلة بخارية عتيقة.. لن أترك الأرض.. قال «أبو عمار» ولم يقل انهم يغيروننا،ذلك لأن العقول لا تلبي نداء التغيير إلا بعد أن يولد حب التغيير في النفوس، وتتكاثف دواعي التغيير على جبهات الميادين.. ومن ثم تعجز الأشياء القديمة عن التماسك.. وتعجز الأشياء القديمة عن مقاومة التغيير..

وعلى الصخرة التي لا تتغير كان أبو عمار يرسم علامة الاستفهام.. وكانوا يعملون.. وكانوا يعملون.. وفجأة، اتجهت العيون صوب الوادي.. كانت الغيوم تتلبد كثيفة سوداء متشبعة ببخار الماء.. وكان هزيج الرعد أقوى من كل صوت ولكنه صوت مألوف.. وخطف البرق أبصار الناس.. وهطلت الأمطار.. وتوقف العمل.. ونهض أبو عمار في رشاقة الطائر الصغير ونسي كل شيء... وكأنه لم يكن أمام شيء.. وامتلأت الحقول بالصبيان والنساء والرجال.. وارتفع صوت «أبي عمار» ومشى على طول الوادي:

— احضروا المعاول.

وردد الجبل نداءه.

— ادخلوا الغنم في الحظائر.

وتغلغل في الحقول.

— ابرحوا السواقي..

غطت الأصوات.. أصوات حلي النساء الفاخرة.. أصوات الصبية الفرحين.. أصوات الرجال العاملين.. غطت على كل شيء حتى العمل الموجود هناك.. وكان أبو عمار موجوداً فوق كل شيء.. وكانت المواشي تعود، وكانت المعاول تضرب.. وطفت المياه على جنبات السواقي..

اليوم عمل.. واليوم لا عمل.. لقد جرف السيل أكوام الاسفلت والحديد والأخشاب.. لقد أغرق الآلات وشرد الرجال.. ولم يبق شيء سوى الخطوط البيضاء وأصبح كل شيء في عداد الأساطير التي رواها الوادي على مسامع القرية في قديم الزمان، وكان السيل يزيح.. يدمر.. ويعبث.. وكان الوادي يرغي، ويزبد.. وانتشى «أبو عمار».. وتذوق طعم انتصار لذيذ.. وردد على صبيانه: «ألم أقل لكم؟. ألم أقل لكم؟.»

ومرت الأيام..

وبدأ كل شيء يعود كما بدأ.. وبدأ العمل أصعب مراساً وأشد ضراوة.. واستمر.. واستمر أقوى من كل حادث مفاجىء.. أقوى من كل شيء.. حتى من الطبيعة نفسها.. ومن على الصخرة كان عقل «أبي عمار» يرتعش في حمى، وتتساقط منه الأفكار.. وتتناثر على كل درب وفي كل اتجاه.. «إنهم يعملون».. ولم يعد قادراً

على التفكير في أي شيء آخر.. وامتلأ الكون بالضباب إلى درجة التشبع.. وكانت مشاعره تشد بيأس على يد اليأس.. وانشق الجبل واستوى الكوبري.. ومد الخط.. وجاء سيل من السيارات والناس.. وتعلق الخبراء بقمم الجبال وناموا في بطون الأودية.. وساروا عبر الحقول وتحطمت صخرة «أبي عمار» وأصبحت كحبة رمل ملقاة على الطريق.. وترك لابنه حرية الكلام.. واقتحم الضجيج هدوء القرية.. وصلى من أعماق قلبه: «اللهم اجعله خيراً.. اللهم اجعله خيراً..»

٢٧ شوال ١٣٩٢هـ



في جوف الليل

في جوف الليل

— أنت تلعبين.. وضحك بهستيريا.. وتطلعت إليه أمه مستفهمة حائرة..

— أنت تلعبين يا أمي..

— ابني.. ابني.. وضاعت هذه الكلمة «ابني» في طوفان الضحكات الهستيرية.. وكان قد غادر البيت يلفه الظلام بغموض رهيب.. منذ أيام.. ورصيدها من الملاحظات يغطي أعمال البيت اليومية، ويقف في طريق علاقتها برجلها الجديد مثل شبح مخيف يتوعد.. وهي إذ تؤرخ لهذه الفترة تجدها تبدأ مع البداية الأولى لحياتها الزوجية الثانية، وتأخذ في التعقيد كلما أخذت هذه الحياة تميل إلى الاستقرار وتطمع في شكل أفضل.. ولم تكن قادرة على الإضافة لأنها لم تعد قادرة على التفكير وإطالة النظر في مصير حياتها الراهنة.. ويلتهب عقلها ويجر أحلامها على الشوك.. وتنبعث الذكريات في تداع سريع متدفق لكنه صامت.. وهناك.. هناك تحت شجرة الأثل الكبيرة.. في جوف الليل كان ابنها يقف كطفل ولد دون أبوين.. كان يقف دون حركة.. غير حركة الأنفاس المهشمة الدامية تتعاطف مع الكون كأنات الحائرين.

ظهرت بوادر هذه الثورة النفسية العنيفة أول مرة عندما عاد من المدرسة ذات يوم.. فقد امتنع عن الطعام.. ولم يتناول غداءه.. وتمدد على السرير حاملاً شقيقته الصغيرة، ووسدها صدره الراكض في دروب التيه والضياع.. لقد كان أحد أولئك الذين تولد فيهم قوة خاصة تدفعهم دفعاً إلى استلهام الحياة كيف يحيون؟. وكان يحيا على حب أبيه.. وقد مات أبوه الآن.. ولم يغب عن الأم أن ابنها يعيش في وحدته مع الألم الجاثم داخل نفسه،لكنها كانت تقنع عقلها بأن هذه الأزمة طارئة لاتلبث أن تفتر، فتهدأ وتستكين.. و يلفها الزمن في ستائر كثيفة من النسيان.. ونحن في مثل هذه المواقف نفقد كل شيء.. العلم.. المنطق.. الحدس.. كل شيء.. وتتخلى الأم عن أنها «أنثى» تدرك بومضة ما نعجز عن إدراكه بعد مسير طويل، هذه الأزمة ليست طبيعية.. فقد مرت الأيام طويلة.. طويلة وهو يتابع بعينيه مأساة حياته دون أن تكون هناك تغيرات طارئة على عالمه الخارجي تحطم البقية الباقية من قواه النفسية،أو هي حتى تغير مجرى حياته إن أمكن لحياته هذه أن تسير في درب آخر، لا شيء هنا.. ولا شيء هناك.. غير يد طويلة مشوهة تشير: «أنا أبوك الثاني»،ويخبىء نظراته بين الصفحات.. بين بشر يتألمون.. بشر لوت أعناقهم يد القدر، وأخمدت كل الأماني القوية التي كانت تتأجج في أعماقهم كرقصات حب عنيف.. لقد كانت أفكاره اللاهبة تؤكد له و باستمرار أنه مسؤول عن أمه أمام ضميره.. وأن هذه الطفلة حرام أن ترتمي في أحضان ليست لها.. ترتمي بأمانة و براءة، وتنعم بزيف الحب ورخص القبلات.. وكان يرتقب من الأيام الطوال لحظة واحدة.. فقط واحدة يهديه فيها العالم سعادته المفقودة.. وتمر الأيام.. و ينأى به الشقاء بعيداً.. بعيداً عن الربوع الآمنة العائشة في سلام.. لحظة.. لحظة واحدة وتعود الأشياء إلى أماكنها، ويحتفل العالم لأنها عادت بعد رحلة طويلة، ولكن من يدري ربما لا تعود.. الحرمان.. البؤس.. العذاب.. كل هذه المصطلحات لم يكن لها وجود في قاموس حياتهم.. لقد كانوا جميعاً ملتصقين بواقع الحياة.. وكانوا يرددون أغنية واحدة: «إننا نعيش، إننا نعيش كأغنية جميلة تتألق في عيون الزمن..»

— ما هي الحياة..؟ كانت بالنسبة إليهم تعني مجموعة الأشياء التي يحيونها.

ونحن كما هم مساكين لا ندرك الخطوط العريضة العميقة للحياة.. وقد مات.. مات ولن تعود الأشياء إلى أماكنها.. لأنها لا تعود.. لقد كانت حياته مسرحاً ضخماً

تمثل عليه أضخم دراما لفوضوية العالم وشقاء الإنسان.. ويحتدم الصراع.. فتثور آلام.. تتفجر.. تفترس ذاتها لعلها تعثر على شيء.. أي شيء.. لعله ينادي: «هنا.. أتألم يا أماه..» إنها ستضحي بدمها.. بعرقها.. بدموعها.. ليسكت هذا الألم. إنها ستفعل.. هكذا عاهدت نفسها.. لتفعل، وليسكت هذا الألم.. تثور آلام.. تتفجر... تفترس ذاتها... لكنها لا تعثر على شيء غير قلق نفساني رهيب يشتعل في أعماق ابنها.. ويجيب في صمت: «أنا لست بجانبك».. وفي خضم هذا الاندفاع العاطفي بدرت منها تصرفات سريعة متتالية تزيد الظروف خشونة.. وتزيد الموقف حدة وألماً.. فهي أحياناً ترفع صورة الأب الراحل أمام العيون لتبعث الحياة.. وتشيد بذكرياتها في الضمير.. وهي أحياناً تخفي الصورة.. وليتولى الصمت الإجابة على الأسئلة كلها.. حيث لا جواب غير الصمت.. غير الموت.. غير كبت المشاعر، وسفح العبرات، وهي أحياناً تخدع زوجها السعيد اللاهي بأن يزور فروع حانوته الكبير في هذه القرية أو تلك ليطلع على سير العمل.. ولتقول لابنها: إنها صرفته لتخلو ساعة إليه،وتصفي حساباتها معه هو الآخر.. وهي أحياناً أخرى تنسحب من أحضان زوجها الغافي لتجلس إلى ابنها وتمد يدها لتضعها على قلبه.. وتسأله: «هنا تتألم يا بني». ولم يتكلم.. و يبكي في صمت.. وتجيبها الدموع: «نعم هنا أتألم يا أماه».

— إن نهايتنا الموت يا بني.. كلنا نموت..

و يتنفس في عمق صامت.. كأنه يريد أن يقول: «ليس هنا ما يؤلمني».

— لو خرجت يا بني لتراهم يعيشون.. يضحكون.. سعداء يغنون.. نبيلة التي مات أبوها.. وخالد الذي فقد أمه.. ونعيمة وأحمد وعائشة..

— أوه يا بني إن صحتك في تدهور مستمر.. وأختك تحبك.. عدني بأنك ستذهب يوم غد إلى مزرعة أبيك.. عدني.. عدني يا بني.. عدني.

وهمس: «أعدك».

وتناولت يده وطبعت عليها قبلة طويلة حارة.. وتركته وهو يكرر بعنف الرجال الأقوياء داخل نفسه: «أنا لست صغيراً.. أنا لست صغيراً..»

كل محاولات الإنقاذ هذه لم تكن في الحقيقة غير النوايا الطيبة التي تحف بالطريق إلى جهنم.. إن كل مرض يهوي بحياة البشر إلى أودية الألم والعذاب لا تستطيع اللغة حتى ولا لغة العلم أن تصفه أو أن تتبع منشأه ومراحله فهي لا تعلم متى وكيف بدأ؟.

كما أنها لا تعلم أين ينتهي؟.

إن مشكلتنا في الحياة تكمن في أننا نريد أن نعيش لنحيا. وعندما يتخلى عنّا العالم فإننا لا نفقد الأمل في الحياة.. ذلك لأن الحياة تنبع من شيء كبير.. أكبر من إرادة العالم.. ولكننا في الواقع نفسه نحتج على العالم، ونأبى إلا أن يكون لنا فيه مكان.. سواء أكان هذا على حساب غيرنا.. أو حتى على حساب نفوسنا.

إن ذات الإنسان مركبة من أشياء كلها تفتح النوافذ على كلمة (حب)،وليس كرهنا للقبيح ناتجاً عن عدم حبنا له.. بدليل تلك الأشياء التي تضرب على وتر الإحساس،وتوقع لحناً يمكن ترجمته بقولنا:«لماذا كان هذا كله؟ ليته لم يكن هكذا.. يكون من الأفضل لو لم يكن هكذا..» ونحن عندما نحب الموت نكون أشد حباً للحياة.. وليس هذا التناقض الظاهري في حياتنا إلا دليل على أننا موجودون أحياء، ودونه لا معنى للبقاء والاستمرار.. ياصاحبي على أي صفة يريدون أن يكون العالم؟ عالم تطفح فيه رؤوس رجال وقلوبهم بنداءات الحياة الخالدة، وتلك الأشياء التي أودعها الله أمانة في نفوسهم يضحون من أجلها ليحتفظوا بها حتى يموتوا..

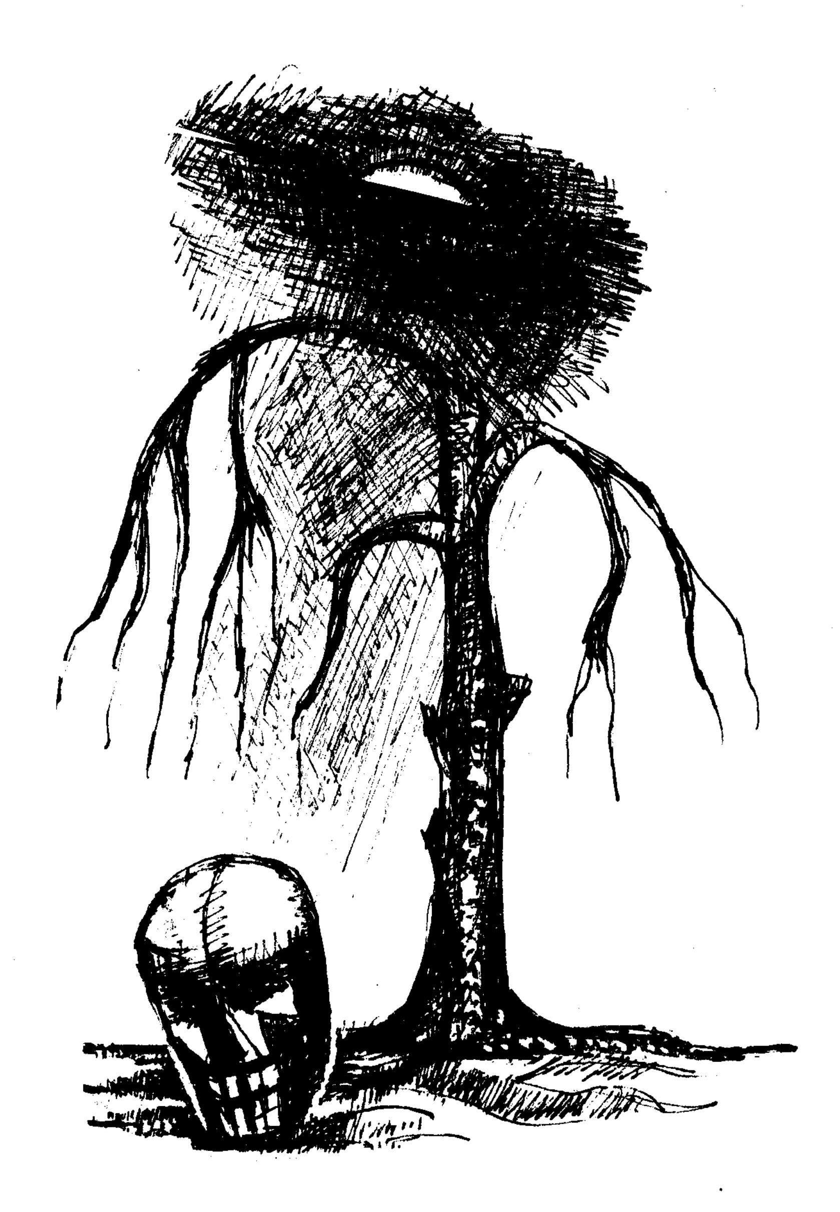
لم يعلمنا الفلاسفة والعلماء شيئاً، ونحن أحياناً عندما نجد نفوسنا فجأة، نجد الجرأة لنقول لهم: «إنكم مخطئون». ومن ثم يرفعون أقلامهم عن الأوراق ليقولوا: إننا لا نعرف.. إننا لم نعد نعرف، ونسير في طريق واحد.. لكننا قد لا نلتقي.. هويعلم أن هذا الرجل كان شريك أبيه في حب أمه.. لقد تعلمنا الحب معاً.. ولكن أباه امتلك أمه لأنه صاحب النفوذ في القبيلة.. وكثيراً ما حدثها أبوه بذلك، وهويسمع وهي تطالبه بالمزيد.. وهويستغرب كيف أن بنت الجيران امتنعت عن لقائه بعد أن مات أبوه..؟

كل هذا عاد إلى عقله دفعة واحدة.. عاد قاتماً كثيفاً.. عاد يجر أشياء كثيرة ضاع تاريخها الحقيقي. و يدفع أشياء كثيرة ينتظرها مستقبل بعيد.. بعيد، وكل الأشياء تتلاشى.. تحترق.. تهرب وتخلفه وحيداً يصارع ذاته لترصد مصيره في مكان آخر..

وثار تلك الليلة ثورته العنيفة اللامنتظرة وخلف أمه صريعة.. مهشمة.. باكية.. وعندما افترق الاثنان.. وطوى كل منهما طريقه حتى مجاهل كون واسع كبير.. كان الرجل الجديد في طريقه إلى سعادته يردد: «أنا خلقت منك.. وأموت فيك.. ونحن الثلاثة أحياء..»

— ساعرضه على الطبيب النفساني من أجلك يا حبيبتي.. من أجلك.. وغفا الاثنان.. وكان الآخر قد وجد نفسه هناك.. هناك، تحت شجرة الأثل الكبيرة.. في جوف الليل.

٢٦ ذي القعدة ٩٢هـ



أموات آخرون

أموات آخرون

صديقي -س- حتى الواقع يتفكك.. يتحلل إلى ذرات.. يتحول إلى شيء غائم.. ألم يكن يا صديقي ضخماً.. مثيراً.. مغرياً؟. ألم أقل لك يا صديقي: إنني صممت أن أكون واقعياً.. لأنه كبير.. مثير.. مغر.. وهكذا كان.. وهكذا شددت حياتي إلى عجلات الواقع فسحبني إلى المستنقعات.. إلى مرمى النفايات... أريد أن أخرج يا صديقي.. أن أعود إلى الماضي.. الماضي البعيد حيث لا تغيب الشمس أبداً..- كن قوياً- ولكن يا صديقي حتى الأقوياء ييأسون.. وإلا لماذا ينسلون خفية من الحياة..؟

أخرق أوراقك وابدأ الحياة من جديد.. تريدني يا صديقي أن أحيا دون ماض.. دون تاريخ.. تريدني أن أتخلى عن معطيات الوجود.. فأفقد الاستمرار إلى الأبد. أنا أريد الماضي.. أعطني الحرية لأعود.. أنا لا أستطيع العودة.. لأني فقدت الحرية،ألم أشد حياتي إلى عجلات الواقع؟. لقد خسرت الحياة.. وهذا كل شيء.. أين أتجه؟.. الصور جامدة؟. عاطلة عن الحركة.. الرؤى غائمة.. الضباب كثيف.. وأنا أشعر بالتعب واليأس.. لا أريد أن أقف.. ولا أريد أن أتقدم.. أريد أن أعود ولكنني.. ولكنني فقدت الحرية.. إنني أشك في أني ولدت في بلاد الشمس.. ولم يكمل الرسالة..

كانت حركة المصانع تختلط بأصوات البشر.. وترتفع مع أبواق السيارات.. وكان التليفون يتكلم.. ـ ومارتا ـ على الباب تنتظر..

خلال التلال الموحشة.. بين أشجار جرداء.. في أمكنة بعيدة عن العيون والأقدام كانت أفكاره تحاول أن تلتصق بتلك الحياة.. وتصنع لها حياة.. هو يريد أن يعود إلى الماضي.. الماضي البعيد، ولكنه لم يحدد الصورة.. صورة هذا الماضي.. وكان وضعه الراهن يذهب به إلى التطرف في تلال موحشة.. وأشجار جرداء.. في أمكنة بعيدة.. هناك كان قادراً على التأمل.. حراً.. ملكاً لنفسه.. هناك أحضان السعادة وأجنحة الطيران، حيث الشمس لا تغيب أبداً.. الواقع مجموعة من المتناقضات.. ولكنه لم يستطع أن يتبين حتى معالم هذه الفكرة.. كان الواقع أقوى منه.. وكان الواقع يسير بسرعة تفوق سرعة التفكير. غير أن هذا الشعاع المنبعث من أعماق عقله يلح عليه وباستمرار لأن يتجه في طريق معاكس، كرد فعل عنيف لما يجري تحت حسه الآن.. ومن يدري.. لعل ذاته ميدان صراع عنيف بين حسّه وروحه.. فقد كانت كذلك.. وكانت الصورة جامدة عاطلة عن الحركة.. والرؤى غائمة والضباب كثيفاً.. وكان الواقع يتفكك.. يتحلل إلى ذرات.. يتحول إلى شيء غائم.. وقد فقد الحرية تلك التي ينعم بها أولئك الذين ولدوا في بلاد الشمس..

شاب في ربيع الحياة.. هكذا يقولون عنه.. ويقصون من أخباره.. لقد تركوه وحده يتحدى العواصف، يصارع الأمواج، ويلعب بالنار.. لأنه في نظرهم كان أسطورة. وهذا خطأ واحد من أخطاء العالم الكثيرة، فهو يهوي بنا إلى واد سحيق ثم لا يقدر على إنقاذنا. وكل ما يفعله من أجلنا هو أن يمزقنا نتفاً.. ويضعنا على أوراق كهذه الأسطر الملطخة بالدماء.. شاب في ربيع الحياة.. هكذا عرفوه.. ورووا عنه ألف حكاية وحكاية وهو كالإعصار يرتفع.. يرتفع يطير بكل شيء.. يمر بكل شيء.. ويحرق كل شيء كمارد من نار.

ما تلك الحياة..؟ إن الجسد لا يسأل الروح لأنها تكون بعيدة عنه عندما يكون هو متدثراً بالأردية الحمراء.. ما جدوى تلك الحياة؟. وحتى العقل يصاب بلوثة فلا يجيب عندما تكون الإنسانية غضبى.

عدم حياة الاستقرار منذ طفولته.. وولدت نفسه عام طوفان الصخب والضجيج الذي اكتسح الدنيا بسرعة وقوة.. ذلك العام الذي أذهل البشر وسلبهم حرية التفكير

حتى.. حتى اعتقدوا بأن للصمت أصواتاً.. وأن أشياء جديدة في طريقها إلى الظهور على مسرح الحياة العالمي.

أيتها النفس لا أدري مصيرك.. كل ما أعرفه عنك أنك ولدت في عالم يمور بالحركة والحس.. ولدت نفسه فكان ميلادها إيذاناً بموتها.. لقد شددت حياتي إلى عجلات الواقع.. فسحبني إلى المستنقعات.. إلى مرمى النفايات، وتيار الحياة لن يتوقف.. لن يتوقف أبداً.. إنها مسيرة، وقبل أن نوجد على هذا الكوكب الصغير، انطلقنا من المجرد.. وانطلقنا من المحسوس وانطلقنا من لا شيء.. وما زلنا حتى الآن بحاجة إلى قوة مجهولة تنبع من مجهول.. وتوالت الأيام.. وولد كثيرون.. ومات كثيرون.. كانت أشياء تتحطم.. وتأخذ مكانها أشياء جديدة ولكن دون صراخ.. الناس.. الناس فقط هم الذين يصرخون.. يركضون خائفين.. مذعورين. وتتشعب الطرق.. ويسلكون كل طريق.. وتيار الحياة لن يتوقف.. لن يتوقف أبداً..

الصيحات تنبعث من أغوار النفوس.. من أعماق العقول.. من الأجساد التي تتهشم تحت أقدام الواقع.. وهي غضّة طريّة لم تجرب حظها في العمر بعد.. لقد خدعوك.. خدعوك بالكلمات الجوفاء.. وأبعدوك حيث لا منار، ولا فنار.. شاب في ربيع الحياة هكذا قالوا عنك.. وقصوا من أخبارك.. شاب في ربيع الحياة.. هكذا عرفوك، ورووا لك ألف حكاية وحكاية. وأخيراً تركوك.. وهتفوا بحياتك لتموت.. لتموت.. عزاء واحد.. واحد فقط يمكن أن أهمس به لك: «ذلك هو أنك لست الضحية الأخيرة، بل هناك ضحايا آخرون..! »

إلى صديقي -س- ومن هو صديقك هذا.. شيء أخير سأهمس به لك أيضاً قبل أن أودعك الوداع الأخير ذلك هو: «أنك بحاجة إلى قوة مجهولة تنبع من مجهول».

لم تتركني صورة هذا الشاب.. صورته التي حددت معالمها رؤية الفكر.. ولعلني أنا الآخر أريد أن أخدعه لأنني سأعتبره مريضاً.. سأحاول أن أنقذه.. سأستعين بكل العلوم.. السيكولوجيا.. الأنثربولوجيا.. و.. ولوجيا هذه حتى آخرها.. سأحاول أن أنقذه.. هكذا صممت.. وعزمت حتى نهاية هذه المترادفات.. ولكن.. ولكن تيار الحياة لن يتوقف.. لم يترك لي فرصة الالتفات إلى وراء.. بالأمس قال لي طفلي الصغير وقد جاءني يسبق خطواته:

— بابا .. واحد عاوزك يا بابا.. ينتظر هناك..

وكنت مرتبطاً بموعد مع إحدى المؤسسات.. فخرجت من الباب الخلفي.. دون أن أقبّل طفلي الصغير الذي شعرت بحبه تلك اللحظة أكثر من أية لحظة مرت على امتداد تاريخنا.. أنا وأمه.. فليبك المسكين.. فليبك.. أنا لا أستطيع أن أمنعه.. أنا لا أستطيع.. إن دموعه لن تجف، حتى ولو اجتمعت كل العبقريات التي أنجبها العالم.. أريد أن أعود إلى الماضي.. الماضي البعيد.. لقد أمسيت أنت ماضياً.. وماضياً بعيداً.. ولتكن أحد عمالقة الصقيع، لتكن... فأنت اليوم رماد.. رماد.. قلت: إن صورة هذا الشاب لم تتركني.. ولكنني أخيراً تركتها على خط الزمن.. يحجبها غبار كثيف.. تثيره أقدام السائرين.. أين هي حبال النجاة..؟ لقد دمر هذا الشاب كل شيء.. دمر نفسه.. اليوم لا حرب ولا سلام... اليوم اتخاذ القرارات الحاسمة.. إما أن تقاوم حتى النفس الأخير.. وإما تتخلى عن مقدساتك.. أنا أريد الماضي.. أعطني الحرية لأعود..

— أريد أن أعود.. ولكنني فقدت الحرية.. فقد شددت حياتي إلى عجلات الواقع.. بنفس القوة التي عاش بها جسده.. كانت نفسه تعيش داخل أتون العذاب.. كانت تتغذى دم العذاب.. حتى الأشياء التي أهملها بدت الآن ذات قيمة مليئة بالوعود.. قادرة على العطاء وحتى العبث يرقد جوف الصمت.. أيها الزمن اعطني لحظات لأكون قادراً على التفكير.. لأشعر أنني كائن حي.. فقط أنني كائن حي.. فجأة أحسست بخوف.. خوف يشبه ذلك الذي نشعر به بعد صحو من إغفاءة طويلة مع حلم مميت.. وتحركت لأسأل المرآة.. غير أن دخول زوجتي المباغت قطع تيار أفكاري.. ـ وقد اعتبرت هذا فيما بعد تدخلاً في شؤوني الخاصة ـ

فتحول إليها السؤال من تلقاء نفسه..

— ماذا هناك؟. وكانت تحمل في يدها كتاباً..

— اسمع.. يقول «راسل»: في العهد الفيكتوري كانت القردة تتزاوج مرتين.. أما في الدورة العشرينية فقد فسدت أخلاق القردة.. أيضاً..

وعقبت على تعقيب الفيلسوف للحياة في عصره.. بقولها:

— لقد وجدت ضالتي..

قلت:

— هذا أفهمه.. ولكن أجيبي كيف مات..؟
جاليليو.. وسقراط.. ونيتشة.. وهمنغواي.. وفيكتور.. و.. واستمررت أحصي كل علماء وفلاسفة وأدباء الغرب.. وكأنني أجيد اللغة اللاتينية الأم وأتكلم فروعها بطلاقة..
— أجيبي.. وكانت قد غادرت مكتبي قبل أن ألفظ هذه الكلمة الأخيرة.. وعاودني الخوف.. مرة ثانية.. وكان الخوف من الموت.. الصور جامدة.. عاطلة عن الحركة.. الرؤى غائمة.. الضباب كثيف.. كثيف.. وأنا أشعر بالتعب واليأس.. لا أريد أن أقف.. ولا أريد أن أتقدم.. أريد أن أعود.. ولكنني.. ولكنني فقدت الحرية.. إني أشك في أنني ولدت في بلاد الشمس.. كانت هذه الكلمات الأخيرة التي سلمها أمانة للأحياء.. وكان هذا هو السر الأخير.. الذي وضعه خفية في تابوت الأموات.. لا أريد أن أتحدث عن النهاية.. لأنه قد انتهى في يده ورقة بالية.. طويت بعنف وقد لف أصابعه عليها.. كحبال وشدها ما استطاع كأنه يريد أن يخنق صورة حياته الماضية.. أو هو يعتقد بأن هذا وحده هو السبيل إلى الخلاص عندما هوى بيده على صدري ظننت أنه ساعي بريد مجنون يريد أن يسلمني رسالة.. وكدت أضحك وأنا ألتفت إلى المارة، غير أني رأيت شخصاً ما واقفاً خلفي.. شخصاً ما يبكي.. يبكي بحرارة لم أعهدها من قبل في بني الإنسان..
إنها نسخة من الرسالة التي كتبها لي.. قبل سنوات.. ومن بين التنهدات الأليمة تناهت إلى مسمعي مقاطع من كلمات متقطعة خلاصتها.. أني مذنب.. وكنت قد تركت هذه الأشياء الضالة وسرت على عجل لئلاّ تفوتني المسرحية الجديدة.. وفي نيتي أن أسأل زوجتي عن آخرين من الشرق..

٤ صفر ١٣٩٣هـ



العقل لا يكفي

العقل لا يكفي

حياتي مجزأة محدودة.. كحياة كل الناس.. تتحرك داخل نطاق ضيق.. حول نقطة واحدة: الدائرة.. تلك هي الحقيقة الفعلية.. وتتحرك الأشياء الأخرى.. تتحرك كحياتي ثم تعود في النهاية إلى حيث بدأت.. ولست بحاجة لأن أجاوز الزمان والمكان أو أحاول أن أعرف ما وراء الحياة.. وكذلك هي الأشياء الأخرى.. أنا أعيش وهذا مبرر وجودي.. وربما هي أيضاً.. لست أدري.. فأنا أعرف نفسي فقط.. لكن كيف يعرفني الناس..؟

ولد هذا السؤال ولأول مرة وأنا أمزق دعوة فنان تمهيداً لوضعها في سلة المهملات كان يريد مني أن أشاركه في اختيار اللوحات التي يريد عرضها في معرض فني ما.. وكدت أضع الصيغة النهائية للجواب النهائي لولا أن انبعث سؤال آخر..

— أيهما أصدق معرفتي لنفسي أم معرفة الناس لي..؟؟

وشعرت بذلك الشعور الذي انتابني وأنا أكتب قصة.. توتر داخلي.. قلق وعبث.. حيرة وضياع.. وفجأة ارتديت ملابسي وانطلقت بالسيارة مخالفاً كل إشارات المرور.. شريد.. مجنون.. مجرم.. هارب من العدالة.. قد يكون.. فالسؤال أحياناً

أقوى من كل شيء.. حتى من الرجل القوي.. تلك لحظات لا تحسب بالثواني والأيام والسنوات.. ما أنا..؟؟ لا أستطيع أن أجيب.. لأنني لا أعرف الجواب.. لأنني دون فكر.. اليقظة.. النوم.. السكون.. الحركة.. العقل.. الجنون.. كل هذا لا أفقه له معنى.. وقد حدثتك عنه بالأمس.. لا.. لا.. لاتقل: أنت اليوم إنسان آخر.. فالصراحة تثير جنوني.. قل:إن رحلتنا في هذه الدنيا ليست إلا بحثاً عن الجواب.. وحيث لا جواب.. فالسؤال موجود يتكرر على ملايين الصيغ.. وهو واحد.. إنني أتخلى عن كل شيء.. عن المعرفة.. حتى عن الأمانة التاريخية.

اللوحات على جدران غرفته متوازية.. متقاطعة.. متجمعة.. منفردة ومتنوعة كخطوط الحياة.. اقتحمت المدخل دون استئذان.. ووجدني الرجل قائماً أمامه نابضاً بالبلاهة وعنف الإحساس الداخلي كلوحاته التي تفتش عن تفسير لبقائها.. كان يصهر ذاته.. يركض تحت سياط من العذاب.. يصرخ.. و يلف قلبه الجريح بقطعة قماش وسهد هدّه على الخشب لينام.. وكان متعباً، كمهاجر وصل متأخراً وقد أضناه السير الطويل.. وكانت الأبواب مغلقة.. وعلامات الاستفهام كأشباح الليل في الخيال المريض. وتعطل كل شيء وتذكرت أنني جئت في مهمة تتطلب شيئاً من التوازن.. وأشياء من الذوق.

— مساء الخير.

— اجلس.. وأشار بالفرشاة إلى مقعد دون أن يلتفت.. وعاد الماضي.. عاد دفعة واحدة.. أيامي في فيينا.. ذكرياتي في إيطاليا.. فشلي في دراسة الفنون.. المعاناة الطويلة التي عشتها حتى لحقت نفسي.. حتى تحولت إلى كلمات الصراع.. العذاب.. الألم.. عاد الماضي.. عاد دفعة واحدة.. وشعرت أن هذه (الأنا) ليست إلا بقايا حطام إنسان.. وفي الوقت ذاته بدأت أحس أن هناك شيئاً ما.. شيئاً أكرهه وأتمنى لو يرحل إلى الأبد.. وأحبه عندما أفقده، وأتمنى لو يرجع.. و يعود.. بدأت أحس هذا الشيء يملأ هذا المكان من العالم الحائر الذي يمور بالنداءات والتساؤلات.. وعلى وجهه آثار التعب.. والعجز والإرهاق.. والتصق انتباهي بلوحاته.. وكان كل شيء يغرز نفسه بقوة في أعماق نفسي.

— أنا هذا العالم.. وهذا العالم أنا.

— ونحن هنا نتحدى نابليون.

— لا تفكر بعقلي أنا.. نطقت بهذه الجملة كمن يستغيث.. كنت أتلاشى تدريجياً. وكلمة الاستقلال تنتحر على شفتي.. رباه.. وشاخ الرجل.. كبر وهو دون الثلاثين.. لقد ترك الفرشاة تنغمس بثقلها الصغير وأخذ يتأمل الصورة كأنه يسألها عن شبابه كيف ضاع.. كيف سرق منه وهو في كامل وعيه.. وبدأ وجهه يحتج على خشونة الزمن.. والجحيم يتحدث من منافذ روحه بصمت وحشي كأطلال حاقدة تبكي ماضيها السعيد.. لم أعد أجرؤ على التطلع إليه لأنه أقوى من الكلمات.. واستعرضت اللوحات واحدة.. واحدة.. سأنهي مهمتي بأية كيفية.. سأمزق الوشاح الأسود، وأضع حداً لمأساة عالمي.. إلا أنني لم أوفق.. فلوحاته متنوعة.. وأنا تعب المزاج.. ثم إنني ومع كل محاولاتي المتكررة لم أستسغ تدخل العقل في الجماليات. رغم أنني أدلل هذا الطفل العنيد الأحمق.. أضف إلى هذا كراهيتي للتصوير التي خرجت من محيط الشعور إلى اللانهاية.. ولم يكن أمامي إلا طريق الاختيار.. واستعرضت اللوحات مرة.. ومرة.. وأخرى..

— كلما ارتقى الفن، كلما ابتعد عن الرمزية.

لم أعثر إلا على هذا الحكم التقليدي.. كنت كطفل لا يملك غير لعبة واحدة.. وغلفتني الحيرة.. وتحولت إلى إنسان تافه، إنسان يعتمد على يده لأنه عجز عن اكتشاف ذاته.. وكنت قد فقدت الموضوع ذلك الذي يظهر جلياً حتى في الرمزية التي أكتب بها.. إن ذاتي تمتص كل شيء.. دون أن تعكس أي شيء.. فهل تحولت فعلاً إلى إنسان آخر..؟

التفت إليه بحركة من جسدي كله.. ولعلني أنتظر الجواب.. كان الرجل قد خطا آلاف الخطوات كأنه يقيس قدرته على السير، أو هو يريد أن يتأكد بأنه قادر على المسير..

— أأنت تنتظر يومك الأخير..؟ أنت لا تموت على الأقل الآن... ولم يجب... واستمر يخطو ولفّنا الغموض مرة أخرى.. كان عالمنا يتحدى.. يفرض نفسه.. كان شجاعاً رغم أنه ينزف دماً.. وأخيراً جلس أمامي.. جلس.. وركز نظراته طويلاً دون أن تتحرك شفتاه.

— أتريد أن توصي بشيء قبل.. قبل أن.. ولم يدعني أكمل.. نهض من مقعده..

واحتضن إحدى اللوحات.. ثم عاد إلى مكانه.. ووسدها بيده.

— انظر.. إنها الوحيدة التي تحظى بتحية المساء والصباح.. إني أحبها.. صدقني إني أحبها.. كما لو كانت بيتي.. كما لو كانت أمي وأبي وأخي وأختي.. كما لو كانت طفلتي.. وأعادها إلى وضعها الطبيعي، أعادها برفق.. ووضع أصبعه على شيء في وجهها لم أتبينه.. أعادها.. وعاد هو إلى وضعه الطبيعي وأضاف:

— إنها البيت، والأسرة والوطن.. إنها العالم.. وتغير صوته.. كان غير عادي.

— لقد كان حكمك قاسياً.. وازداد حدة.. وارتفع رهيباً قاسياً.. قاسياً فعلاً.

وتلت هذه الصرخات حركات من يده.. تغيّر.. شاخ.. وكبر..

و.. وانهالت الكلمات..

— فعلاً لقد كان حكمك قاسياً.. فالفن لا يبتعد عن الذوق.

الإنسان.. الإنسان وحده هو الذي ابتعد.. وتعقد.. يسير في طريق معاكس.. يلتصق بالأرض مرة أخرى.. يضحك والأجدر أن يبكي.. يسير والأجدر أن يتوقف.. يشعر بالانتصار والأجدر أن يعرف أنه مهزوم.. لا أدري.. لا أدري لماذا؟. نسي أنه وصل إلى القمر مدفوعاً بحبه للجمال.. لا أدري لماذا نسي أنه يرفض واقعه مدفوعاً بحبه للجمال.؟ لا أدري.. إن كل شيء يتحول إلى النقيض.. وأطرق.. وأسدل الستار على عمر قلبه.

— إن الإنسانية تتراجع بسرعة مخيفة.. ستكون الخسارة ضخمة.. سنفقد مكاسبنا حتماً.. وأمسك عن الكلام.. وأمسكت عن التفكير وتناول الفرشاة ليعطي الصورة بعداً آخر من أبعاد نفسه.. لقد ترك لي الفرصة لأفكر.. شعرت أنني كنت ضعيفاً بجانبه.. سأجرب التحرش به.. كان هذا شيئاً غامضاً هو الآخر.. كان رغم إرادتي عفوياً.. صريحاً.. وحراً دون قيود..

— لا تتجرأ على ممتلكات الآخرين.. أنت خلايا.. تموت.. تحترق دون أن تخلف رماداً.. أنت لست مفكراً.. أنت رحالة دون غاية.. أنت مادة عاشقة.. أنت مصمم أزياء.. أنت.

— كفى.. كفى..

واقترب مني تلاحق أنفاسه رطوبة الليل.

— دعنا نتحدث في المهم.. لقد قرأت يا عزيزي كل ما كتبته تقريباً.. إن شعوري

وأنا أتأمل ما أرسم هو شعوري نفسه وأنا أقرأ ما كتبته.. إني أشعر أنك قريب إلى نفسي.. تفهمني رغم أننا لم نتعارف حتى الآن.

— دعني أنهي مهمتي.. هذه وتلك.. واللوحة الثالثة من اليمين.. والأولى.. والأخيرة وأحضرت أنا اللوحة التي انتهى من رسمها آنفاً.. وكان هو قد أحضر اللوحات المشار إليها..

— بالمناسبة سأكتب نقداً لأعمالك ليعرفك الآخرون..

— لكن لا يهمني الكسب المادي.. لا تهمني الشهرة..
أريدك أن تعرفني أنت.. أنت.
وتطلعت إلى الساعة.. كانت تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل.

— هيا أين الكاميرا؟. قف.. اجلس.. امسك بالفرشاة.. تصور أنك ترسم الآن.. تحرك أمام اللوحات.. أشر باصبعك إلى هذه.. إلى تلك.

— ولِمَ كل هذا..؟ هل تريد أن تتحقق من شخصيتي.؟

— المال ـ الشهرة ـ المجد ـ إني خبير بفن الدعاية.. سأحقق لك هذا الحلم.

— قلت:لا.. سأكرهك.. لا ترغمني على هذا.. أرجوك..

— تكرهني.. لأن لديك الوقت الطويل للكراهية عندما تمل التسلية.
اكرهني.. فأنا لا أحتاجك كثيراً.. أليس كذلك..؟
وابتسم.. وغادر مكانه.. ونظر إلى لا شيء.. ثم ضحك بجنون.. وضرب الطاولة بعنف..

— وأنت لا تعرف نفسك.. أنت تخدعنا.. أنت وهم.. وهم كبير.. أنت مزيف نقود.. أنت.. وصمت.. واستسلم عناده.. وتهشمت كلماته على الحواجز دون أصداء..
انطفأ.. انتهى ككل شيء له بداية ونهاية..

وتأكدت أن «نحن» لا توجد عندما تكون «أنا» موجودة فعلاً.. وأن حياتي مجزأة محدودة.. وشعرت بالجوع.. وحاجتي إلى النوم.

وحتى لا أتعرض للأحلام المزعجة قررت أن أمر على الشاطىء.. فأن تنام وتحلم تحت السماء أفضل من أن تنام وتحلم تحت الأرض، ولكن.. يظهر أن معارفي خاطئة، ليس عن نفسي وعن نفوس الآخرين فحسب، بل عن كل أشياء العالم.. فقد حمل

الهواء ملايين التوقعات.. وأغراني الشاطىء بالحديث: «كانوا بالأمس.. و بالأمس القريب يملأونك حركة.. وأملاً.. وحباً.. تتردد على شفاههم أناشيد السعادة.. و يطل من عيونهم بريق الأمل والحياة.. لا يعرفون معنى الزمن.. الأماني تتحقق.. الصراع.. البقاء.. الاستمرار.. الفناء.. لا وجود لهم في قاموس أفكارهم.. كل شيء يتحقق.. يتحقق دون وسيلة.. كل شيء يرحل و يعود دون أن يترك فراغاً.. فهو موجود باستمرار لأن موجده دائم حاضر متعال وهو قريب.

.. وكنت الجسر إلى الحياة تبارك أحلامهم.. تؤاخي بينهم.. تحتضنهم، وتشاركهم لأنك فيض من رحمة شاملة.. ولكن أين هم..؟ لماذا هجروك..؟ لماذا هجروك؟ لماذا..؟ لماذا..؟ ألم تضح بحياتك من أجل أن يحيوا..؟

أنت أصلح للحياة من أي مكان آخر.. حتى ولو نفدت خزانتك، إنهم سيعودون يوماً.. سيعودون.. وجرف النهر جزءاً من الشاطىء.. وجفلت الأكواخ.. وجفلت القوارب.. وتهشمت المعدات الصدئة.. وتبادلوا النظرات جميعاً.. وأشاروا إلى السماء.. واستمر النهر ككل شيء أزلي.. وشعرت، وللمرة الثانية بالجوع وحاجتي إلى النوم.. وساورني قلق.. قلق شديد على أطفالي الصغار الذين ربما لم يناموا حتى الآن.. لأنني لم أكمل لهم حكايتهم المفضلة.. واستمر الهواء يحمل ملايين التوقعات.

— لماذا أتيت إلى هنا..؟ موقف مثير حقاً..

وكانت يده تنام على كتفي تضحي بالحياة من أجل الحياة كأب حنون مفجوع.. كرفيق عمر طويل.. كإنسان فقد كل شيء.. كإنسان أعمى يتحسس النور.. وثوان وتغير.. ككل اللحظات الجميلة..

— لماذا جئت إلى هنا..؟ أعاد السؤال بتهكم سافر.

— جئت.. جئت لأتخلص من الأحلام.. لأخفف وزني...

— وجئت أنا لألتهم الأحلام... لأخفف وزني..

وضحك بهستيريا مخيفة ضحكات متقطعة، صاعدة وهابطة أحياناً.. وتلّني كوحش جائع تعود على أكل لحوم البشر.. وهدر كآلة عتيقة ثقيلة..

— اسمعني جيداً.. العقلانية الباردة يجب أن تلغيها من وجودك.. بل يتحتم.. و.. وصمت.. وهدأ كالهدوء الذي يسبق العاصفة.. وتابع: «إنك تظلم نفسك.. تخدع الآخرين.. تسيء إلى سعادة البشرية وسلام العالم.»

وهبت العاصفة قوية عنيفة .. تقتلع كل شيء غير قادر على الثبات .. وكنت غير قادر على الثبات .. ولم أع غير كلمات ثلاث :

— لا تلعب بالنار.

وخلفني ومشى .. وقف .. والتفت .. وعاد بعد خطوات .. وتكلم بأسلوب الحكيم يوم كان للزمان حكيم .

— العقل وحده لا يكفي .. وابتعد وهو يردد على الشاطىء المهجور .. أمام النهر .. وسط الظلام «العقل وحده لا يكفي» .

٣ ربيع الثاني ١٣٩٣



مقاومة .. أم استسلام

مقاومة.. أم استسلام

لحظة... لحظة واحدة و يتحرر نهائياً و يتفرغ لنفسه.. بعيداً عنها.. الآن ستأتي.. و ينتهي كل شيء، ليبدأ كل شيء.

لحظة.. هي واحدة.. واحدة فقط و يرحل.. يقلع بزورقه في اتجاه الريح، وعبر ذلك الجانب من البحر.. وتطلع إلى الساعة الملتصقة بالجدار.. سيرحل، و يترك كل شيء للتعاسة.. للشقاء.. للموت... سيرحل وهو غير نادم على شيء.. لأن كل شيء سيظل محتفظاً بقيمته هناك، لا يصطبغ بأفكار عالم مراهق.. ستأتي الآن.. وتطلّع إلى الساعة الملتصقة بالجدار: هناك العالم الحقيقي.. هناك الإنسان الحقيقي.. الجوهر الذي يكشف ذاته الخصبة في سهولة.. هناك دنيا خالية من العبث والفجوات.. سيرحل.. و يعرف من هو؟. وأين مكانه؟. ولن يمسخ حياة الإنسان، لن يترك العالم المزيف يتحكم في مصير حياته.. سيشهد اللقاء الأزلي بين الشمس والأرض والتناغم الوجداني بين الطبيعة والروح.. ويحب.. ويحب الحياة، تلك التي تشعر أنها تحيا.. وتطلع إلى الساعة الملتصقة بالجدار.. إن كل شيء على فطرته، لم تعبث بمقدساته يد

الإنسان العمياء، وقدمه الملوثة بجراثيم الموت... يعيد للقلب البشري شاعريته الأولية التي يجب أن تكون موضوعاً للعقل.. وتطلع إلى الساعة الملتصقة بالجدار في أعماق الحياة شيء يضيء أبداً: هو الحب.. هو الخير والجمال.. هو الشعور بأن الإنسان كائن حي جوهري وأنه خلق من أجل أن يحيا.. ولم يمنح الحياة من أجل أن يعيش فقط. وهو ذلك الشيء الذي أضاء وجوده مرات، ومرات..

ستأتي الآن.. الآن.. يجب أن يرحل.. إلى هناك.. وتحرك في مكانه ولأول مرة طوال ساعات من الليل.. ستأتي الآن.. ورفع يده ليتحقق من ساعته.. لم يحن الموعد بعد.

وقارن بين الساعتين: إن هذه الآلات الصغيرة لدقيقة جداً.. ولم يعد تفكيره قادراً على تتبع مجرى الزمان والحياة.. وفجأة.. نهض وفتح الباب.. جرس..؟

..طرق.. حركة.. نداء.. لقد سمع مثل هذا.. إنه متأكد تماماً..

ودارت عيناه المليئتان.. في الفراغ.. ولم يكن أحد موجوداً.. لأن أحداً لم يوجد.. ربما خلف البوابة الكبيرة.. خلف البوابة الكبيرة.. يكون.. يحتمل..

سيذهب بنفسه.. وحتى الآن لم تأت.. حتى الآن..

وعاد.. عاد ليكرر اللعبة القديمة، ولعلها الوحيدة التي يتأكد بها البشر من أنهم أحياء قادرون على الاحتمال.. عاد ليملأ غرفته بمتاعب الحركة.. ورن جرس التليفون..

— من..؟ أنت نادية.. أسرعي..

— أنا.. أنا يا عزيزي.. ألو..

— إني آسف.

— ابعث لي سيارتك.. إن احتفال الجامعة أوشك على الانتهاء.. هكذا يبدو لي. سأحضر زوجتي.

— ألو.. احضرها معك إلى هنا.. حالاً.. إلى هنا.

— أتعني..؟

— إني آسف.

وأحس بأن قواه منهكة.. إنها تحطمت.. وربما لا توافق على الرحيل.. ولكنه سرعان ما عزى هذا إلى شقاء الناس تحت ضغوط اللامبالاة واستأنف نشاطه..

— سيدي..
— هل جاءت سيدتك..؟
— لا.. ولكن..
— ولكن.. أهي حماقة أخرى؟
— رجل يستأذن بالدخول.
— رجل..؟ وأشار بيده في عصبية، ورمى بنفسه على مقعد مجاور للتليفون.. وأشعل سيجارة ولم يدر الخادم هل هذه علامات للموافقة.. أم الرفض..؟

ولكنها ليست المرة الأولى التي يواجه فيها مثل هذه المواقف مع سيده، لذا فقد همس للرجل بكلام لم يفهمه.. وأشار بيده هو أيضاً.. وبقي الرجل حائراً.. وما لبث أن تقدم إلى الباب بتؤدة وطرق برفق..

— هو.. هو.. أنا.
— هي.. هي.. أنا.
— أريدك في أمر هام ومستعجل.
— أريدك في أمر هام ومستعجل.
— ليس هذا وقت مزاح الآن.. إن الأمر يقتضي جدية، ويتطلب الإسراع ما أمكن.
— سأنتظرها.. فالأمر يقتضي جدية، ويتطلب الإسراع ما أمكن..
— إني لا أفهمك... وسمع ضوضاء داخل الغرفة، ظنها لأول وهلة مبادرة سريعة لاستقباله.. فعاد إليه وضعه الطبيعي، ومسح قطرات من العرق تعلقت على جبينه رغم رطوبة الليل، وألقى نظرة سريعة على ملابسه، وتهيأ للدخول.. وانتظر.. واستمرت الضوضاء.. وبقي منتظراً حتى..
— ماذا تريد؟ سأخبره فيما بعد إذا.. إذا سألني طبعاً.

قال الخادم بصوت خافت وجل، وقد التصق بزاوية المدخل.

— ابنتي.. ابنتي.
— هل أصيبت بالجنون هي أيضاً؟
— الخجل.. الخجل..
— ابنتي.. ابنتي.. الخجل.. الخجل.. ماذا تريد؟

إنني مشغول ومسؤول أيضاً..

— تصور إنها.. إنها لم تقوعلى مقابلة خطيبها..

— من الأفضل لها هذا.. ماذا تريد أخيراً؟. قبل أن أجن أنا الآخر..

— أريد مساعدته.. أريد أن.. ولم يكمل، وانزلقت على مصراع الباب يد قلقة، وأطل منه وجه يحمل معنى اللهفة والسؤال، وتناثرت حروف الكلمة.. «ما هذا» ؟

ثم.. ثم عادت قوية متماسكة..

— ما هذا؟

وانصرف الخادم بطريقة مسرحية مضحكة، ومكث الرجل.. كطفل مدلل أمام موقف مربك، لم يكن له مثيل من قبل في حياته المصخبة اللاهية. موقف تأزم فجأة.. ودون مقدمات..

— ما هذا..؟

— أنا.. أنا..

— أنت.. أنا.. هو.. هي..

— أنا... ابنتي..

— ليس الذنب ذنبك.. إني أعرفك.. وسأعرف كيف أحاسبه.

— ابنتي الخجول.. الوحيدة.

— هيا.. هيا انهض.. إن ابنتك أمينة على النقل، كما هي زوجتي أمينة على المواعيد.

مصادفة أم أن البشرية تتمسك ببعض المفاهيم وهي تعلم أنها خاطئة، وأنهم مخطئون، أم هي حكمة الله..؟

لا أدري.. هيا بنا.. وقاده إلى المكتبة.. حيث وجد صعوبة في تبين ظروف حياتها النفسية، وصعوبة في اختيار الطبيب، وصعوبة في خلخلة الصمت الذي يتكتل دائماً على منافذ تفكيره عندما يكون حيال موقف إنساني عام.. يا للحياة.!! و يالها من مكان ليست له نهايات.!! تعيش في جوفه كائنات: منها من يحس بالوجود.. ومنها من يحس بالعدم، لكنها تعيش.. وتعيش في صراع مع ذواتها من أجل أن تستنزف الحياة، وهي لاتدري بأنها جوف الحياة وأنها موعودة بالحياة..

أدى السائق مهمته.. ومكث ينتظر أخرى جديدة.. وهو يحترق شوقاً لتمضية السهرة مع «الشلة» في المقهى المنعزل عن المدينة المتيقظة طوال الليل.. وعملت الساعة.. وتعمل على تجزئة الزمن بلا ملل.. ودون أية اعتبارات لمجموعة المواعيد المتشبث بعقاربها..

وغادر الرجل المكان.. يحمل خطاب التوصية.. وفي قلبه انتظار مبطن بالتوقع لأشياء يمكن حدوثها، وكان الخادم قد ضاع وسط زحام الشارع الكبير، يفتش عن سيدته بأسلوب الباحث.. وعلى فمه ابتسامة لا تلبث أن تتسع أحياناً حتى تفقد معناها. أما هو فقد عانق كتبه بحنان بالغ.. وتهشم على مقعد منزو، وأخذ يتلمس داخل نفسه مقاييس الزمان، وأشكال الحياة لحظة.. بل لحظات، بعضها ينسلخ من حياته.. وبعضها يتمسك به.. وبعضها الآخر غامض غموض المجاهيل.. لكنه من نار.. إلى متى؟ إن السكون كالصمت.. كالركود.. كالجفاف.. ألا ينبذ الجسم الحي الأشياء الغريبة عنه..؟ إنها الحياة تستمر.. فتعني المحافظة والتجديد.. الحياة سفر.. وحياته في حاجة إلى تغيير طبيعي..

وضغط برفق على زر كهربائي، وأنشأ يقلب صفحات كتاب..

— الشاي يا سيدي.

— ومن علمك هذا..؟

— الكتب.. وأشار بحركة بهلوانية وضحك سيده.. ضحك صادقاً راضياً عن نفسه وعن الأشياء حوله.

— لقد قلت لك في مثل هذا الوقت لا تقل سيدي.. ولكن قل لي..

— لم أعثر على سيدتي..

— قل لي: هل ضحكت أم بكت عندما فوجئت به على الباب..؟

— بكت يا سيدي..

— وكان من الأفضل أن تضحك.. لأنك لا تعرف معنى الحب.. والأبوة.. والأمل.. لأنك لم تجرب.. الانتظار.

— أنا أحبك.. وانتظرت سيدتي كثيراً.. بحثت عنها.

وتحول الحوار إلى حوار من نوع آخر.. إن نوعية الحب البشري موضوع تأمل ودراسة، لم يأخذ من وقتنا واهتمامنا ـ نحن الآباء ـ إلا القليل.. والقليل جداً.. وهنا ركز عينيه

على شـيء مـا بين طيّات الـكـتـب.. وانصرف الخادم دون أن يحول انتباه سيده كأنه يـعـرف مـثـل هـذه الحالات. يقولون: إن الأديب تعرف نفسه نفسها أكثر من أي شيء آخـر على وجـه الأرض.. هـذا خطأ.. وخطأ كبير.. إن القصص التي نكتبها ليست إلا لحـظـات عـابـرة.. ومنفصلة نختلسها من حياة الناس وقد نكون مخطئين فيما قدرنا.. وقد يـكـونـون مخطئين فيما توهموا.. والعذر الوحيد أن هذا مفروض من الحياة نفسها.. وليس على الحياة.

وأحضر الخـادم التليفون.. ولعل العادة أوحت إليه أن يفعل.. لماذا طلب السيارة؟ لـيـخنق الحقيقة لقاء ثمن رخيص: إنهم أثر ياء.. ولماذا يلح الآخر على ابنته كي تواجه الـواقـع بـصـلابة..؟ لتموت في سبيل أن يحتفظوا بالحياة.. ولماذا..؟ لماذا لم تمتد حياتي أنا..؟ لأنني أشتغل بتمو يه الحقائق.. واحتواه فراغ أضيف إلى فراغ..

إن حـيـاتـنـا القصيرة هذه لغز غامض.. لا يقدر على كشفه بشر هو جانب من ذلك اللغـز. وحـتـى عـنـدما يحاول، يكون قد فسر رغبته في حياة أوسع وأطول، وتلك أحلام الـنـاس مـن الـقـديم.. وجـره شـيء مـا.. جـره إلى بداية أحلام.. ليلة انتهى من عمله الأول.. شـعـرت بـذلك الفرح اللذيذ.. ذلك الذي يشعر به السعداء أحياناً، ولأول مرة أحببت نفسي.. كنت.. كنت أحسب أنني ملكت العالم.. سدته.. أخذته كله. ولم أكـن أدري بـأنـه يـسـتـنفد قواي ليمنح قدميه القوة على المسير.. لقد علمني أين الأمل؟ ولـكـن مـا أن حصلت عليه حتى وجدت آلاف الوعود.. رماداً تحمله الر ياح إلى أمكنة لا تـرغـب في امـتـلاكه سأرحل.. وسأترك لك كل شيء، فإنك لا تستطيع أن تخدعني مرة أخرى.. سأرحل إلى حياة لم تمتد إليها حتى الآن.. وحتى إن حاولت.. فوصلت، فإنك لن تجدني، لأنني أكون قد رحلت إلى حياة لن تمتد إليها أبداً.

ما أشد حمقك أيها العالم إذ حسبتنا أغبياء!.

ألم نبنك نحن بعقولنا وسواعدنا..؟

أفلا تخـاف أن نهـدمـك ثم لا نـبـنيك..؟ سأرحل.. كل شيء لم يعد لي.. انفصم عـنـي بـقـوة.. تـركـني وحيداً مقفراً.. أشيائي الخاصة أصبحت ملكاً للطبيب الخاص، وأمانة الحياة عندي أصبح يطالبني بها البشر.. يشاركني نصيبي من الحياة. ورن جرس التليفون..

— ألو.. عز يزي.. الدكتور.

— هل تشكو شيئاً هذا المساء.؟
— أشكو كل شيء.
— سأقابلك غداً.. صباحاً.. تصبح على خير.
— بل.. قل ترحل على خير.
— ألو.. سأبعث لك بعض الأدوية المهدئة حالاً.. فوراً.. ربما أقابلك غداً.. تصبح على خير.

أدوية مهدئة..؟ لا.. لا.. لن تستطيع أن تخدر منطقة الشعور الآن.. وحتى لو استطعت.. وهو احتمال لا منطقي.. فإن طبكم سيرجع من البداية يبحث عن نقطة الصفر.. إنكم مثلنا تنظرون إلى الإنسان كأنه آلة قابلة للتجزئة والتركيب.. تتحركون على مسرح حياته بحرية.. وتعتبرون أنفسكم مسؤولين عن موته.. سأترك الكتابة.. وستترك أنت الطب في يوم كهذا اليوم بكل أبعاده.. بأدق تفاصيله ومحتوياته.. سأرحل.. وعندما تشكو شيئاً سأبعث إليك الدواء: شحنة من الضوء، والحرارة، حفنة سعادة مهدئة من إنسان عادي بسيط.. همسات لقاء تحت ضوء القمر.. تغريدة عصفور.. رقصة شجرة ساعة من الأصيل، وقبلات صباح لزهرة عذراء.. وكلمات من صلاة قلب مؤمن.. إن الحياة نفسها تحمل عوامل الحياة، غير أن الحقائق لا تأتي إلا متأخرة.. سأرحل.. واقتحم الخادم باب المكتبة.. وعلى خديه دموع تكتب تاريخاً دموياً رهيباً لأمل طفولي..

— سيدي.. سيدي.. سيدتي..
— احزم الأمتعة.. واخبر السائق بأن ينتظر، واستعد للرحيل أنت.
— سيدتي.. يا سيدتي..
— قلت لك لا تبك.. لا تبك.. فليس في العالم شيء يستحق الرثاء.
— إنها في المستشفى.. مرضها خطير.. ستموت.
— وهذا يعني أن حياتي ستمتد على جسر آخر.

لنبدأ رحلتنا الآن.. ولعلنا أشقى الكائنات الحية التي تبحث عن السعادة في وجه الأرض.

ورن جرس التليفون.. رن.. ليروي قصة الأجيال في كلمة.. ليعلن النهاية.. ورن بقوة.. وترددت أصداؤه في جنبات البيت الكبير.. وبقيت الكلمة معلقة في الهواء، فليس هناك من يسمع.. وليس هناك من يجيب..

٢٨ رجب ١٣٩٣هـ





إني أفهمك

إني أفهمك

— حدثني عن السعادة يا فؤاد..

وهزت رأسها في حركة إلى الخلف..

— هذه الحركة تعجبني يا نجوى.. إن فيها دلالة.. ورفع كوب الشاي.. وأخذ نفساً طو يلاً من سيجارته..

— إذا لن أعيدها مرة ثانية.

وابتسمت وعلى شفتيها احتجاج.. ورقصت أناملها على الطاولة كعازفة بيانو.. ونظرت إليه..

— وهذه الحركة تعجبني يا نجوى.. إن فيها دلالة..

ورفع كوب الشاي.. وأخذ نفساً طو يلاً من سيجارته، وكانت آلاف الكلمات في تاريخها معه قد تجسدت أمام عقلها الآن صور حية.. تتدفق بالحياة.. وعلى طول الطر يق.. احتشدت الذكر يات تحتفل باليوم الأول.. وتمجد مسيرة الأيام.. وامتد بساط أخضر تحت عيون الربيع.

— إني أفهمك..

كل شيء أصبح الآن له دلالة.. كل شيء يتفاهمان عليه الآن.. وكل شيء يملكانه.. وكل ما تعرفه الآن: انه أمامها.. يصغي إليها.

ومن أعطاك السعادة قادر على أن يعطيك الشقاء..

— وأنا أفهمك..

— حدثني عن السعادة.. يا فؤاد.

— حدثيني عن الشقاء يا نجوى.

كانت تنتظر حدثاً يجعل حياتها أكثر أهمية.. شيئاً ما.. أكبر من التكهن.. وراء الحدس يتجاوز قدرة الفرد الواحد.

— أنت موفقة يا نجوى.

— أنا موفقة.

— لديك المال والبنون يا نجوى.

— حالفك الحظ يا نجوى..

— أنت جميلة..

— أنا جميلة.

لو تمزق ستار هذه المجاملات.. لو تشبثت بالصمت.. لو تهرب.. لو تختفي عن هذه التجمعات البشرية التي تطارد حياتها. لو تفعل.. لحاصرت نفسها وعرفت من هي.. وأين مكانها.. إن إحساسها بالألم يقترن بشعورها بالسعادة.. إنها تحس الألم.. عندما تصحو من إغفاءة النوم الجميل.. إنها كمواطن تنسيه الأيام في منفاه مأساة قومه.. وفي أعماقه بقية من ضيق.. وفيه الحنين كله.

— انظر.. ما أجمل حديقة بيتنا يا فؤاد !.

— ما أجمل حديقة بيتك يا نجوى !

كل شيء لها.. طوفان يغمرها.. يشل تفكيرها، يحد من قدرتها، و يضعف أملها في النجاة..

وعلى سطح المياه الغاضبة أبرياء.. وفي أعماق المياه الهادئة كائنات غريبة تولد.. وتموت.. لقد غيرت.. وغيرت في معالم بيتها: أثاثه.. حديقته.. نظامه.. وكل شيء فيه.. نفسها.. عقلها.. قلبها.. لقد غيرت أشياء وأضافت أشياء في بيتها.. حتى أسلوب حياتها.. لقد تغير كل شيء.. وكل شيء تغير.

ترى.. أيلاحظ هذا التغير..؟ هل شعر به فعلاً..؟

هل يجري في دمه كحبي.. كحبه لي..؟

«هذه الحركة تعجبني يا نجوى». ودون دلالة يا فؤاد.. هي شيء خارجي له حدود و ينتهي بسقف.. هي كطريقتي في الأكل.. هي أسلوبي في الحديث.. وهي أيضاً.. هي أكثر منها الآن.. لحظة رد الفساتين.. يبدو متناقضاً أن آكل.. وأتحدث.. وأخلع.. وأرتدي.. وأن أكون أمامك.. أصغي لأشياء غير مألوفة.. أنا معك.. أنا أنت.. أنا أعيش في عالمك الداخلي.. الذي ترحل منه وتعود إليه.

— أنا أفهمك.. أنت أناني.. تتركني كسياق الأيام.. لا تشعر إلا عندما ترغب في الشعور بالزمان.. تتركني كممرات الطريق، لا تحس بك إلا عندما تريد التحرك..

المتلكات الضخمة.. اللامنظور.. العطاء..

هذه الأشياء التي تمنحك القوة لتحدي الواقع.. لحب الحياة.. والاستخفاف بالموت.. أين هي يا فؤاد..؟ أين مكانها..؟ أنا لا أريد أن أختلس منها شيئاً.. أريدها أن تبقى.. أن تستمر.. أريدها خزائن لا تنفد.. أنا أعترف بأنك تستحق كل شيء..

«أحبك».. لو تعلم بأنني أرغب العودة إلى الوراء.. إلى الوراء كثيراً.. ليلة احتفل أبواي بأول صرخة استسلام للحياة.. لو تعلم.. لا.. لأني أريد الهروب منك.. بل لأشير إليك.. أناديك... أردد اسمك.. لأشعر كيف تكون البداية.؟ عندما تكون الروابي الخضر تنتظر لقاء الحب والأمل.. والحياة.

— كم هي جميلة.. تلك اللوحة.. ألست معي يا نجوى.؟

— ذلك لأن من رسمها كان جميلاً يا فؤاد.

— أنت مخطئة.

— لماذا لا يعيش في داخلي..؟

لماذا لا يعيشني لحظة ؟ لحظة و يقتنص أفكاري.. يحصيها جزءاً جزءاً.. أنا لست بعيدة عنه «مخطئة» ليته يلصق هذه الكلمة على كل تصرف.. ليتني أعرف مواطن الشقاء لأبلل، بل لأغمر أرضه الجافة بفيض من السعادة كبير. ألا يفخر الجندي الشجاع بالموت.؟ بلى..

وموت المجهولين منهم حياة تبحث عن الموت. لكنها لا تموت..

كانت الكلمات بينها تحترق.. وتمتلىء.. وتفرغ في حياتها الخاصة دروساً يعلمها العقل لكنها متأخرة.. كصراع النفس.. كندم الضمير.

أليست الصراحة معدومة في لغة التخاطب..؟ بلى..

لكننا نصر على أنها ضرورية.. وكذلك الحقيقة أيضاً.. الربيع جميل.. لكنه لا يستطيع أن يخفي صورة الخريف إلى الأبد.. النهر جميل لكنه لا يستطيع أن ينسينا مأساة الصياد.. وأشباح الفيضان.. الحق.. الخير.. العدل.. كل هذا جميل.. وجميل جداً. ومن بين الجماليات.. كل الجماليات ينبثق الشعور بالوحشة.. وعزلة الإنسان عن أحلامه ورغباته وأمانيه في الحياة الدنيا.. نحن نتمسك بالقشور.. ووراء القشور لباب.. نحن نطفو على السطح.. وللسطح أبعاد.. إن وراء الأشياء الشفافة هذه.. الفانية هذه.. أشياء أبدية خالدة.. وإلا أي معنى للأمانة والتضحية والفداء..؟

إن الجوهر يعني البقاء، غير أن عقل الإنسان عندما فشلت محاولاته في استقصاء الجوهر أصر متعمداً على المصير هو.. الزوال. فلنشر إلى صدورنا بأن القوة هنا.. وليجر في دمائنا أمل مجنون.. وهذا يكفي.

— أريد كوباً آخر من الشاي.. وأشعل سيجارة أخرى.. إن هذا الدخان المتصاعد.. الذي يشحن الغرفة بالدوائر والحلزونات له دلالة يا فؤاد.. هذا الدخان يمكن أن يستوحيه الفنان في عمل عظيم يخلد اسمه. «إنك شقي». تحب الحياة لكنك تواجهها باستخفاف.. يكون مبطناً بالحيرة أحياناً.. الحياة خلقت من أجلك.. فلتمجد هذه الحياة.. هل الوجود مجرد استهلاك.؟ لا.. أبداً.. الوجود نشيد لا ينتهي.. هو قصة تتكرر.. لكننا لا نمل مطالعتها لأن وراء أحداثها أشياء تتجدد لا نفهمها.

— ما رأيك في نزهة قصية على الشاطىء يا.. نجوى؟

— عندما تنتهي أعمالك التي لا تنتهي.

— اليوم مساء.

إنها الضرورة.. تقصيك عن مواطن الشعور بإنسانيتك وتزجك في سجن الضرورة.. أنت تعرف أنك لست مقيداً.. طليقاً.. حراً.. أنا لا أريد لك أن تهرب.. لا أريد أن تكون سلبياً.. أريدك أن تستخدم الضرورة فى تسخير الضرورة.. ماذا أعمل بيدك..؟

أعطني قلبك.. أعطني رصيدك من التاريخ.. أعطني تجارب العمر جاهزة، وليتحطم قلبي الباقي.. ليتمزق.. ليندثر.. ليزول كل شيء، و يبقى شيء لا يزول.

— وكم تستمر هذه الرحلة يا فؤاد ؟

— بضع ساعات.. ناوليني صحف اليوم. وقت ابتداء الدوام الرسمي يقترب.

— صحف اليوم لا تقرأ يا فؤاد.

— أهي مكتوبة بالهيروغليفية..؟ وضحك.. وتناثرت سحب من الدخان على وجهه بينما استمر فمه في العطاء.

عليها أن تواجه الآن موقفاً أشد صلابة.. موقفاً لا ترتاح إليه أفكارها الشفافة وحساسيتها المرهفة.. وهكذا هي دائماً عندما تجد متسعاً للحديث تشده إلى أعماقها.. حديث يتلاشى هناك دون أصداء أو يكون له رد فعل لا يتفق والرغبة المروضة على التقاط الاستجابات..

ماذا عليها أن تفعل الآن؟ عليها أن تلوم نفسها الآن.

— هل هناك من جديد..؟

و واصل القراءة دون أن يلتفت إليها، أو يثير سؤالها في ذهنه اتجاهاً ما «الدولة تتخذ إجراءات حاسمة ضد ارتفاع أسعار المواد الغذائية».

«الجفاف يجتاح مساحات غنية من العالم القديم». «اعتداءات متكررة على سور يا ولبنان». «أول عنكبوت يواصل رحلته في الفضاء الخارجي.. وأحد الرواد يعلن عن رغبته في الزواج إذا ما كتبت له العودة إلى الأرض». «الجديد في عالم الطب». «هزيمة بطل العالم في الملاكمة تثير دهشة الجماهير». «اصطدام مروع.. وحرائق.. وآلاف الضحايا». وها هي.. ذي صورة ابني نجح المحروس... هنئيني..

— ستأخذه معنا في النزهة.. إلى الشاطىء.. أليس كذلك.؟

— هذا ضروري.. وهذه أقل مكافأة.. كم أنا أحبه يا نجوى.. إنه وحيدي.

إنه يتبدل بسرعة.. يتغير.. يمثل دوره بمهارة.. وفي إمكانه أن يبتلع العالم ويهضمه في أقل من الثانية.. إنه قوي..؟ وأمام من..؟ وأسعفتها الطبيعة الأنثوية التي لا تخطىء في استشفاف ما وراء الكواليس..

— ألا تخاف أن يكون شاعراً.. أو رساماً.. أو قصاصاً.. أو شيئاً من هذا القبيل؟

— أحياناً نحب الفن يا نجوى.. وعندما نحبه نظلمه لأننا ننظر إليه من زاوية مصالحنا

الخاصة، نعتبره عاملاً مساعداً على تحمل مسؤوليات الحياة.. الفن عندنا منفذ للتهريب.. ونهض وارتدى ملابسه وحمل الحقيبة وغادر المكان...

— «يا لك من رجل غريب!.»

كان هذا الخطاب موجهاً إليه.. لحقيقته.. لكيانه كله.. لوجوده كله.. لكن لم يقدر له أن يسمع هذه الكلمات.. أن ينال هذه الشهادة.. أن يدخر هذا الكسب.. أن يدرك عمق هذا الاعتراف.. وأن ينظر إلى نجوى الحقيقية. وقدر لها أن تزيح ستائر النافذة.. وأن تنال.. وتدخر، وتدرك هذه الجموع البشرية تسير... وتسير.. تعززها القوة، ويحفها ركب الأمل. هذه الجموع تغادر مكانها لتصنع لها مكاناً آخر في مصانع المستحيل.. مكاناً أكثر سعادة، وأكثر استقراراً.. مكاناً أكثر اتساعاً، وحياة الإنسان فيه أطول أمداً..

وامتد نظرها على طول الشارع.. وتعلقت عيناها بالعمارة الضخمة.. وأشارت إلى طفل يركب دراجة وسط الزحام.. هل يدرون ماذا يخبىء لهم القدر؟ هل يعلمون ماذا سيجد في الأيام..؟ ماذا سيأتي به الغد؟

لو كانت الأشياء بإرادة الإنسان.. وأغمضت عينيها لتلقي الضجيج.. لتمتص أصوات الأقدام.. وحرارة الأنفاس.. لتفهم كلمات من العصر الحجري.

أحياناً أشعر بالسعادة عندما أرى الإنسان يشقى، لأنه جعل من نفسه مقياس الأشياء جميعاً.. لماذا هم هنا..؟ إن كل ما صنعوه عبر تاريخهم الطويل.. أو كتبوه.. أو فكروا فيه.. إنما هو توسيع للسؤال.. هو نفسه في صيغة جديدة، وتكون المفارقة واضحة عندما يعودون إلى أنفسهم.. إلى الداخل.. إلى الأعماق البعيدة الواسعة.. النتيجة أنهم يفقدون الزمان والمكان.. يدورون في حلقة مفرغة.. تدور هي أيضاً دون أنظمة وقوانين.. ولكن دون عبث.. دون فوضى.. وتناهت إلى مسمعها حركة تتكرر.. لا تمل التكرار.. حركة آتية من مكان بعيد.. اعملوا ما شئتم.. انصهروا.. موتوا.. اختنقوا.. الجو مشحون بالسم سنذهب إلى الشاطىء في المساء، وتتكرر الحركة.. والحركة تتكرر.. والمشاهد أيضاً.. وكل شيء.. ويهبط الفكر من علو شاهق و يتوسد مخلفات النوم و.. الطعام..

إن زمن انتهاء الدوام الرسمي يقترب.. وكل ما هو ضروري يجب أن يكون جاهزاً الآن. وفي نفس المكان الذي غادره، وتركها فيه، كانت هي باقية الآن.. على مثل ما

غادره.. ومثل ما تركها عليه.

— ألم يعد بابا..؟ حتى الآن يا أمي..؟

— بعد قليل.. خمس دقائق.. وتأكدت من الساعة.. وأصبح للزمن مقاييس.. ساعة.. دقيقة.. ثانية.. وأصبح له صورة وشكل كأي متاع صالح للاستعمال.

— أر يد أن أتعشى معكما اليوم.

— تعال أقبلك أولاً..

إنها الآن أشد التصاقاً بابنها.. أكثر من أي وقت مضى.. إنها تخاف أن تفقده لا لشيء غير أنه ابنها.. وغمرها ارتياح لذيذ بنجاح ابنها.. شعرت بحلاوته لأول مرة منذ أن حدثها عن فؤاد.

— تعال أقبلك أولاً.

— أنا نجحت يا ماما.

— أنت تعرف أني أحبك.. وارتمى في حضن أمه.. وتوّجهما الخالق بهالة مضيئة من القداسة والأمومة والحنان.. كان بوسع فؤاد وهو يدخل بيته أن يقف لحظة.. و يتأمل كيف يتعاطف بنو الإنسان؟. كيف يتآخون.. و يسمون؟. كيف تتلاشى الفوارق.. وتذوب الأجسام؟. كيف يغمرنا النور الإلهي؟. كيف يكون الصفاء الروحي؟. كيف تتجلى الوحدة؟. وتتجسد المعارف والأمثلة العليا.. لكن..ـ وما أتعس لكن هذهـ.. دخل فؤاد، ولفح وجه الغرفة بـ... (اف).. ملتهب طو يل..

— لن تدوم هذه الشركة طو يلاً.. ما دام يديرها مسؤول كهذا.

— ناولني الحقيبة..، وعلق ملابسك.

— أر يد كوباً من العصير قبل الغداء.

— كل شيء جاهز الآن.. هلم بنا.. وتماسكت الأيدي.. على طر يق المائدة..

— سأروي لكم خبراً طر يفاً.. كان يحدّث ابنه وزوجته.. ولعله يحدّث نفسه أيضاً.. رزق أحد زملائي بمولود أسماه (ديدمونة) وعندما سألته عن سبب اختياره لهذا الإسم بالذات أجاب: «إنه سيسمي المولود الثاني ـ إن رزق به طبعاًـ سيسميه «عطيل»».

وقاطعه ابنه: «لماذا لا يسميه (ماجدولين).. إن المدرس قال: إنها رائعة.. جميلة.. وكبيرة..»

— كفى.. لا أريد أن أسمع هذه الأسماء مرة أخرى يا فؤاد.. إني أعرف القصة كاملة.

— لقد نسيت بأنني وعدتك بنزهة على الشاطىء.

— هذا المساء.

— وسأذهب معك يا أمي.. هل ستأخذني يا بابا على الشاطىء..؟

الحركة تتكرر.. والمشاهد أيضاً.. وكل شيء.. السيارة تقطع الشوارع.. تتحاشى العقبات.. تخترق الزحام.. ضوء أصفر وأحمر وأخضر.. رغم وجود الشمس.. الحركة تتلاشى الآن.. والمشاهد أيضاً.. وكل شيء.. المدينة ترجع إلى الوراء.. الطريق يمتد لا شوارع.. لا عقبات.. ولا زحام.. وكانت تنتظر حدثاً يجعل حياتها أكثر أهمية.. شيئاً ما أكبر من التكهن.. وراء الحدس.. يتجاوز قدرة الفرد الواحد.. وكان البحر يبتلع كل شيء.. حتى أشد الأفكار صلابة.. أكبرها كثافة.. وأكثرها عنفاً..

إن البحر هو الحياة.. والحياة هي البحر.

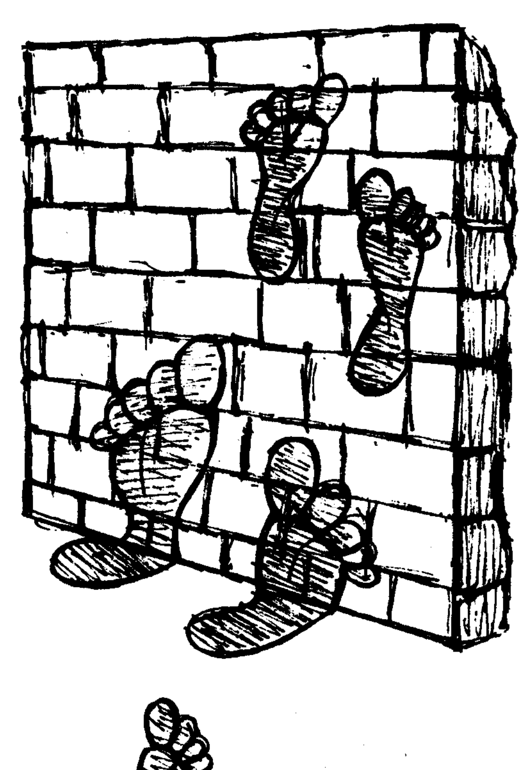
— انظر إليه يا فؤاد.. إنه يجيد السباحة.

— إنه ابني..

وتكسرت الأمواج على وجه الشاطىء.. قريباً من قدميها.. فتراجعت إلى الوراء خائفة في اللحظة ذاتها التي تراجعت فيها الأمواج إلى البحر لتسكن إليه.

١٩ شعبان ١٣٩٣هـ







صورة على جدار التاريخ

صورة على جدار التاريخ

... وخطوة بدت ثابتة.. متماسكة.. صامتة.. واثقة من المصير، كخطا الفيلسفوف.. وخطوة خائفة.. قلقة.. مليئة بالعيون والصور كأنها في أرشيف الموت.. وخطوة أخرى فيها شيء من ثبات التحدي.. وشيء من عبث الأطفال.. وخطوة على الطريق.. وليست على الطريق، وسعها الخيال.. ومحا آثارها يأس قاتل.

وكل خطوة على الطريق مرفقة بومضة من الفكر.. وحديث من المروج، ورغبة من الجسد في البقاء..

المكان هو المكان.. الطريق هو الطريق.. وأحلامه هي أحلامه.. تغوص في الضباب... إنه لم يعد الأطفال بأن يجعل العالم تعيساً.. كان قبساً من النور.. وكان حفنة من الرماد.. لم يتوقف أبداً.. لم يتوقف عن امتصاص شقاء ذلك الطفل.. وإضاءة الجانب المعتم من حياة ذلك الشيخ الذي لا يعجبه شيء.. غير أيام زمان.. لقد كتب.. وحاضر.. وعلم.. وهو يذكر كل كلمة.. كأنه فكر فيها الآن.. كل كلمة.. هي وحي من مستقبل قائم في أذهان الصغار.. وكل حرف درجة من سلم يرتكز على

الشمس.. وكل العالم أسرته.. وكانت الحياة تمور بملايين التطلعات..
معلم.. و.. «عشرون عاماً»... يا للحياة المليئة بالصدق والكذب..
هل ساهم نوبل حقيقة في إسعاد البشرية المتكتلة على وجه الأرض..؟ أولم يكن علماء التربة على حق عندما صعدوا بها من الطبقة اللاعاقلة..؟
كلتاهما معركة: تفجر ديناميت في مساحة واسعة من حياة الإنسان.. وكتابة حرف ناري على صفحة بيضاء من حياة الإنسان..
ما هو الشيء الذي يجعل لحياتنا قيمة..؟
المعرفة..؟
العمل..؟
الانتظار..؟
لا.. ليس في حياته شيء جديد.. أو على الأقل شيء ينمو. لا.. ليس في حياته شيء ينقب عنه.. شيء يقف على قدميه.. أي شيء يتأمل فيه..
ماذا لو كانت آلاف من الأشكال التي رسمها عقله في اليوم الأول من «العشرين» تسخر منه الآن؟
لم يأخذ من حياتها إلا ما يخصه.. لقد طمس الصورة.. ثم طرح عليها ظلالاً من نفسه و.. عمل بحماس بعيداً عن الحقيقة.. بعيداً عن الواقع.. وتعرت الجهود من زيفها الأفلاطوني.. وتجسد أمامه ظل حياته دون طعم.. دون رائحة.. دون لون..
وسأل عن كل شيء.. إلا عن حقيقة نفسه.. عشرون عاماً.. كم أعطى..؟ وماذا أخذ من العشرين عاماً..؟ ..لا شيء.. لا شيء.
في حياة الإنسان شمعة تحترق لتضيء دروب الآخرين، لكن دربه مظلم، لا يتسرب إليه شعاع من النور.. عشرين عاماً..
وعاش ذلك الطفل.. حكم على روحه بالسجن.. وأحب ليل الشتاء الطويل.. ورحل ذلك الشيخ.. حمل معه أيام «زمانه»، وكان بوده أن يحمل أعباء الحياة عن كاهل الإنسان.. وكل شيء ينتهي.. ومصيرنا.. «نموت» حتى لو عرفنا أسرار البقاء.. ألا تقف يا زمن؟ أليس لك مصالح خاصة..؟ ألا تطمع في وجود متكتل.. صاخب..؟
ألا تقف يا زمن لتتطلع إلى الوراء.. لتمتد إلى الأمام كثيراً.. وكثيراً..؟ ألا تقف.. لتترك لنا فرصة التفكير..؟

وفكر.. وتمثلت له «العشرون عاماً» كسحابة صوت في الأفق البعيد دون أن تظلله.. دون أن تعد أرضه.. ودون أن يعلم عن بركاتها شيئاً.

إيه يا زمن..؟ شيء.. ليس هو الثواني والساعات والأيام.. شيء لا تفهمه الأرقام شيء ينسلخ من حياتنا يهاجر بعيداً.. دون أن يترك لنا سوى قبضة من ذكريات باهتة.. سوى أمل ينزف دماً تحت أقدام المشاة.. سوى شبح إنسان يبكي على حافة قبره.. وكأن هذه الأشياء.. هذه الأشياء كلها لم تعش بين الملايين.. جبارة.. على أرض حرة.

إيه.. وأنت يا مسرح الأجيال.. أنت.. أتريد أيضاً أن تمثل الفصل الأخير من مأساة حياتي..؟!

إن الكلمة التي قلتها يوم افتتاحك.. أصبحت الآن جوفاء.. وحتى ابتسامات النصر انطفأت.. وكل شيء.. حتى الشعار.. الشعار الذي رفعته فقد سحره.. وتخلى عن معطياته.. أين أنا من الأمس..؟ وأين الأمس مني..؟

كان هذا قبل عشرين عاماً.. يوم كانت تلك الأشياء الثمينة تتألق في أعماقي بنور يجعلني أرى الطريق كله دفعة واحدة.. يجعلني أرى الطريق حتى النهاية.

أنت يا مسرح الأجيال..

وهمس له شيء ما داخل نفسه: أيها المجد التربوي.. على صدرك وسام من رسالة الإنسان.. وأحسّ بنشوة عارمة دثرت حساسيات أفكاره بوهم مريح.. أيها المجد.. أيها المجد.. أيها المجد.. وكاد يقفز.. يقفز كطفل.. كحمل صغير.. وامتد الطريق أمام ناظريه.. لكن إلى بناية الاسمنت والحديد.. وليس إلى أبعاد الدنيا.. ذلك لأن الاعتبارات التي يحملها المعلم في حقيبته مع كراسات التحضير، كفيلة بأن تروض حصاناً تعوّد حياة البراري، وتلصق عناده بحبة رمل دون إكراه مباشر..

— ١ + ١ .. كم تساوي.. يا شاطر.
— تساوي ٢٠ يا أستاذ..
— يا شاطر أنا بـ«اقلك» ١+١ ما هو ١٠+١٠.
— أصله يا أستاذ أنا وضعت «الصفر» في عقلي.
— هذا خطأ يا شاطر.. افرض..
— أنا .. أعرف الحل الصحيح.. يا أستاذ.

— أيوه.. قول يا شاطر.. أنت.. انتبهوا يا أولاد...

— تساوي ٦٠ يا أستاذ.

— «كده» العمر كله.. طيب خذوا ٢ وأروني الباقي.

يا لها من ذكريات.. من قال لك مخطئاً أنا..! لقد كنت أنا طفلاً آنذاك.. إني أعتذر.. إني أعتذر.. ولكن.. لا يا عزيزي.. لقد جرف الزمن كل شيء.. كل شيء حتى خطئي هذا.. أين أنت الآن..؟ كان هذا قبل عشرين عاماً..

— ألا تعرفني يا أستاذ..!؟ ..أنا..

— أنت.. ١+١

— هل تلقيت دروساً في التسامح..؟ أتقبل اعتذاري..؟ لكن.. لا.. ابتعد.. ابتعد عني.. ابتعد.. أنا لا أريد أن أتفرج على أملي وهو ينهار.. لا أريد أن أتفرج على ذكرياتي وهي تندثر.. ثم إنني.. لا أستطيع أن أتحمل رؤية قصوري وهي تتحطم واحدة تلو الأخرى.هل عرفت الآن «١+١» كم يساوي..؟ عشرون.. عشرون عاماً.

أريد درساً في الحساب.. اشهدي يا دنياي بأنني لم آخذ من الدنيا كل ما شئت.

وامتد الطريق.. امتد ثانية.. وامتد أمامه طويلاً.. يصب أشتات أفكاره جوف مبنى له تصميمه الخاص.. وشعر بأن أشياءه منزوية.. كسيحة.. مفككة.. تعيش دون حياة.. تستمر دون موت.. وتموت دون نضال.. وقد فات الأوان.. وعليه أن يدخل هو أيضاً جوف المبنى الكبير.. و يلتفت إلى الوراء.. ليتأكد من أن ابنه يتبعه..

— يا أستاذ.. يا أستاذ.. يا أستاذ.. والتف الأطفال حوله كأنهم عطشى.. كأنهم مهددون.. كأنهم محرومون من عطف الأبوة، وحنان الأم.. بل.. كأنهم يتظاهرون ضد ليل أسود يكتنف حياتهم بالفجيعة والإرهاب.

— صباح الخير يا أولاد..

— عاوزين نلعب.. عاوزين نلعب.. عاوزين نرسم.

وتداخلت الأصوات: الكورة.. الكورة.. الكورة.. واشترك كورس في الأداء: يا أستاذ.. يا أستاذ.. يا أستاذ..

وشذ التصفيق عن الايقاع.

— أما عندي حتة لعبة يا..

— إيه هيه.. إيه هيه.. ايه هيه.
— الثعلب.. الثعلب فات... وصمت الحماس، وارتفعت درجة حرارته..
— الثعلب فات..! ..يا أستاذ...

كان بوده أن يقول:حتى الزمن فات.. ولكن نظرات الأطفال المترددة.. المتشككة.. المتسائلة.. دفعته إلى واقع صخري ماثل.. وربطته بأطراف اللحظة المؤقتة والمستديمة النازحة من حياته.. في بداية كل يوم..!

عليه أن يسجل الآن اسمه على ورقة بالية.. و يفعل ليثبت وجوده.. وأن يلزق «صباح الخير» على طاولة خشنة.. و يرفع يده المثخنة بالجراح لكل زميل.. أيغتصب فمه المتعب ابتسامة يتملق بها التحديات؟. وعليه.. عليه أن يسحب قدميه بين الأجساد الصغيرة المتكتلة.. ليعرف مدى استعدادها للحياة.. وأن يكمم الأفواه.. رغم رغبته في سماع الأصوات المشحونة بالدفء والتفاؤل.. و باختصار، ينبغي أن ينفصم عن ذاته في هذه الآونة.. ليكون رجل النظام.

اسمعوا يا أولاد.. كان فيه واحد اسمه «أديسون»...
— دون يا أستاذ..!
— أديسوو و ون..

و.. سون هذا يا أستاذ.. بابا مزعله.. وإلا إيه..!
— سأحكي لكم كل شيء عن أديسون غداً.. بكرة.. وعلى فكرة.. كل واحد يسأل بابا.. وماما..

عن «دون سون» يا أستاذ..
— وعن طاغور أيضاً...
— لكن.. بنعرف غوار.. أما شيطان.. يا أستاذ..

أديسون.. وطاغور.. كيف يستطيع أن يعلمهم بأن هذين الرجلين يجب أن يكونا حلم حاضر.. تشرق وتغرب في دنياه شمس التأملات..؟ كيف يجعل منهم أبطالاً..؟ يدركون أبعاد المشوار.. يتخطون الفجوات.. يشقون الزحام دون خوف، كيف..؟! سيمر الركب و يبتعد.. و يتلاشى في الأفق البعيد..

سيمر.. كما مرت الأيام.. و.. هولا يعلم كيف؟. عشرون عاماً.. بل عشرون مأساة في ذمة الأيام.. عشرون مرت.. لا أثر.. لا انتظار.. لا أمل في العودة..

لا شيء.. حتى ولا كلمة.. أية كلمة.. أوه.. اذهبي يا نفس.. تلاشي في الأفق.. الذي بين الجبال.. تواري في التراب.. اذهبي راضية بالواقع.. مطمئنة بالمصير.. أتدرين يا نفسي.. أتدرين بأنني سأتحول إلى إنسان.. تجرد من الأخلاق والقيم، وعواطف الإنسان..؟ أتدرين بأنني سأكون هيكلاً.. لا تماسه خطوط الزمن.. لا تثيره تحرشات الواقع.. ولا يحركه تيار الحياة.. سأرضى بأن أكون مصنوعاً من الخشب..

عشرون عاماً.. أديسون.. وطاغور.. رسالة المعلم.. كل هذه الأشياء أصبحت خالية من الروح.. هياكل جوفاء.. كقصور مهجورة رضي أهلها بالغربة دون حنين، لقد تحطم الزجاج.. خبا الوهج.. نام الضمير.. لم أعد أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه الأشياء تعم بالدفء؟.. على أسرّة من سبائك الذهب فرشت بالحرير.. لم أعد أستطيع العودة إلى عالمي.. لأن عالمي ولو من الوهم.. ومات الوهم.. أنا اليوم.. أنا نفسي قبل عشرين عاماً..

كل شيء، ولو من الوهم.. ومات في الوهم.. مع فارق ضئيل في حساسيات الأوهام.

— عندي.. عندي يا سيادة المدير اقتراح.. اقتراح بسيط، اقتراح ممكن، أضعه على مكتبكم للدراسة.. للدراسة والنقاش..

— ممكن..

ممكن.. أذكر كيف قلتها: كلمة سريعة مختصرة.. دون أن تترجم ملامح وجهك عن التعبير الحقيقي.. للموافقة الحقيقية.

لقد كانت لك تجربة.. وتجربة طويلة في ميدان «الإمكان هذا» وأشد الأوهام حساسية.. هي تحت «نظارتك» دمية كسيحة في يد رجل لا يؤمن بالأوهام.. وكنت أنا في اليوم الأول من العشرين.. لذا لن ألومك الآن.. لست حاقداً.. إني أشعر الآن.. وكأنني أشد التصاقاً بك.. بل أنا كذلك بالتأكيد.. أقسم لك بأنني لست حاقداً.. ولم يعد صدري يحمل كل ذلك الحماس.. كل تلك المتناقضات..

لقد آمنت بأن الإنسان يجب أن يكون آلة.. ليكون قادراً على المواجهة والتحمل في عالم الغدد والهرمونات.. بين أحياء بعثت كيوبد لتتعرف على جسده.. على جسده فقط.

عشرون عاماً.. ماذا قلت آنفاً..؟!

أعطوني ما أر يده...

أنا ما زلت أرى حياتي زرقاء.. مليئة بالنجوم.. غامضة كالسماء..

ربما كان الوهم حقيقة.. ربما عرفت نفسي بعد الغربة والمطاردة والتشرد.. أعطوني ما أر يده.. هل لا يمكنكم أن تعيشوا إلا بأشعة من نظر الناس - كباراً وصغاراً- وهم يتأملون الطبيعة.. يتعاطفون مع الكون، يتفاعلون مع الحياة..؟!

لكن.. لكن ما الزمن..؟! ألا يكون هو عمر هذه الآلات البشرية..؟!

ألا يكون هو المدمرة التي تكتسح حياتها..؟

ألا يكون..؟! بلى.. هو.. هي.. نفسها.. لا.. لا.. لا.. لن ألتمس منكم العفو.. أنا لم أخطىء حتى الآن.. أنا لم أسيء.. لن أعتذر.. لن أعيش هذه الأوهام مرة أخرى.

أنتم كالزمن تمشون دون عيون.. تسيرون على غير هدى.. تنفصلون عن الحياة لشيء.. غير أنها تمتلىء حباً.. تتشبع بالنور.. تستيقظ على الرمال.. وتهب للقاء الإنسان مع الموجودات الأبدية الخالدة.. استمروا.. فهذا هو أسلوب الحياة التي لا يهمها سوى البحث عن العيش.. استمروا وسأقودكم بسلاح العضلات والإغراء.. لن تسعدوا بكلمة حب.. لن تسمعوها.. سأعلمكم شيئاً آخر.. شيئاً أكبر من الكراهية والحقد.. وشيئاً أكثر من الفراغ..

لقد علمني الزمن.. ها.. ها.. ها.. دروساً في الاستهتار.. ودروساً في القسوة. والعنف..

طبقوا معارفكم: المنطق.. المناهج العلمية.. التحليل النفسي.. ابحثوا - ها ها ها -.

استعينوا بـ «ثورندايك.. وكوهلر.. و بافلوف..» لن تعثروا على شيء.. سوى شيء واحد: هو أنني تعيس..، ولن آسف على شيء - سوى أنني لم أعرف هذا من قبل..

— أستاذ أحمد، إني ألاحظ عليك هذه الأيام تغيراً ملموساً.. محسوساً.. أنت لم تعد أحمد الذي تعودناه.. وعرفناه.. فيم كنت تفكر يا مستر..؟ و بصفتي زميلك.. يحق لي أن أسألك..

— كنت أطوف العالم مع أبي العلاء.. الراجع..

— و بصفتي زميلك.. يحق لي أن أسألك: هل ألمّت بك ضائقة مالية..؟

أم أنك تعاني أزمة نفسية..؟

— لا أسأت إلى الولية.. هذا أفضل درس أتعلمه في السجع.

و بصفتي زميلك: يحق لي أن أسألك: هل تنوي أن تطوف مع الحر يري؟. لعل له رجعة هو الآخر..

— لقد بعدت عن الموضوع.. كان يجب أن أفكر في عقلك اللامعقول الذي يسكن في قبو «معقول».

— أيوه.. يبقى بكده خشيت في الموضوع.

— عشرون عاماً..

ماذا تنتظرون؟. يا لك من غبي..!

ألم تلاحظ هذه الخدوش التي تصم وجهي بالجبن والبلاهة..؟

دونك قصتها: في لحظة من اللحظات المباغتة.. التي ـأحياناً كثيرةـ ما تقتحم حياة الإنسان فتحيلها إلى بركان.. أو هي تحيلها إلى بحيرة واسعة من الماء العذب..كان هناك موت شامل.. وكانت بقية من حياة.. كان خيط من النور.. وكانت ظلمات فوقها ظلمات.

كان في أغوار الأرض السحيقة شياطين بألف عين وعين.. وكان صراع بين الحياة والموت.. بين الظلام والنور.

يالك من غبي..؟! ألا تستطيع أن تميز بين السبب والنتيجة.. لقد تغيرت أشياء.. وفقدت أشياء.. وأشياء تحولت هياكل مصنوعة من الخشب، لم تعد هناك فصول في السنة.. لم يعد هناك ربيع.. لم تعد هناك شمس تشرق وتغرب.. لم يعد هناك قمر يضيء.. ولا نجوم..

— ما رأيك في رحلة.. يا أستاذ أحمد؟

— تستغرق عشرين عاماً..

— ننفس عن أطفالنا.. لم يعد التعليم مجرد حشو الذهن بالمعلومات.

— والسيمفونيات.. بل رميهم في البحر واحداً.. واحداً.. ومعهم عشرون عاماً.. وأديسون.. وطاغور.. ورسالة.

- سنعلمهم الصعود إلى الجبال.. العيش في الصحراء.. و...
- ونحقنهم بأمصال السم..
- ألم تسمع ـأستاذ أحمدـ عن أحدث نظرية في التعلم..؟
- لقد تنبأت بها قبل عشرين عاماً..
- هل هذه كوميديا أم ميلودراما..؟
- شكراً لأنك برهنت على صدق نظريتي.

ويالك من غبي.. كم عمر اليونان..؟ كم تبلغ المساحة التي تفصل بين منابع الكوميديا عن مصادر السجع..؟ لا فرق بين الحياة والموت... الزمن.. الوهم.. العالم.. معادلة تساوي الجحيم.. حيث يحترق كل شيء دون أن يخلف شيئاً.. يغنون.. ويفيضون حيوية وسعادة.. يكدون.. وينزفون عرقاً ودماً.. يسيرون فرادى.. وجماعات.. وفجأة.. تفر منهم.. تتنكر لهم.. تنسلخ عنهم تلك اللحظات الفريدة التي حاولوا امتلاكها.. وكأنهم لم يعملوا شيئاً.. ولم يكن أمامهم شيء.. لا.. لا أريد أن أكون دمية تسوق سيارة.. أريد أن أحس بالجراح.. أريد أن أكون إنساناً حقيقياً.. أريد أن أحتفل بعيد ميلادي.. أريد مزيداً من النور..

يا لكم من أغبياء..!

ألا تفكرون بالفارق البعيد بين الداخل والخارج.. بين الصمت والكلام..؟ ألا تعرفون أن الاسطوانة تحد من مسارح الغناء؟ فلتعش أيها الظل.. الحامل وجهه على كفه..! القائم هناك.. فلتحي.. لقد عرفت ما لم أعرفه طوال حياة طويلة أن: «١+١» لا تعني شيئاً بالنسبة لك.. أنت العالم بكل قلقه وخوفه.. أنت من العالم.. وفي العالم.. وكل شيء عنه.

أنت واجهته.. وخلفيته.. وروحه المهشمة الباكية على ساعد الشر والضياع.. قم أيها الطفل.. تحرك.. هلم بنا.. ضع يدك في يدي..

هلم بنا.. لا تدع الزمن يمر.

تعال معي.. لا تخف.. ستكون بين جبال مكة.. حيث يتنفس الصبح بحرية.. ويفكر الإنسان بحرية.

تعال يا عزيزي.. تعال معي.. سأعلمك ١+١.. سأعلمك كيف تضع تصميماً لمعمار كبير على سطح هذه الأرض، وسأعلمك كيف ترسم صورة جميلة خالدة.. على جدار التاريخ..

٢٣ شوال ١٣٩٣هـ



القرار الأخير

القرار الأخير

كان صامتاً عملاقاً كالحياة التي ورثها.. وبدأ التغير.. تغير كبير.. وتمزق الصمت.. وتوسعت الحياة.. خرجت عن دائرة الامتلاك.. ووقف الشيخ على عتبة عمره المديد يشير بيده إلى الأفق وملأت نظراته السموات.. كل شيء يهرب منه دون رجعة.. كل شيء يقاتله دون هوادة.. وكل شيء يصرخ في وجهه «ابتعد..»

الأيام مرت بكل ما فيها من متعة وجمال وتركته مقفراً.. لم يكن يشعر بمرورها.. بل لم يكن يشعر بأن فيها يوماً أتعس من يوم.. وثانيا أسعد من آخر.. كانت محملة بأحلام ترقص وتغني في رتابة كتغر يدة عصفور تعود سماعها كل إشراقة شمس..

إيه يا زمن..!!

كانت لحظات امتلاك فر يدة عاشها عندما حط رحاله على هذه الأرض لأول مرة.. ومن الصعب أن يسير الآن.. لا لأن قدميه متعبتان.. بل لأنه لم يعد قادراً على الرؤ ية.. واستعرض أقرانه واحداً تلو الآخر.. منهم من هاجر إلى أمكنة بعيدة.. ومنهم

من يعمل في الآلات الرابضة هنا كالكثبان الرملية العنيدة.. ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.. وخطو الزمن يتوالى.. أشياء تموت.. وأشياء تولد..

و يسقط في الماء الراكد حجر ملتهب.. ولقد ولد فجأة على هذه الأرض فهل كتب عليه أن يموت معها ؟

و باغته تيار.. خليط من الصور والعواطف والانفعالات.. تيار رمى به إلى الوراء.. ليلة ماتت أم حمود.. ورفع يده يتحسس بأصابعه الخشنة شعره الأبيض الكثيف.. وسقطت دمعة ساخنة على كفه ومن الشرق ارتفع إعصار مخيف كاد يحجب الحرارة والضياء..

— حمود.. ألم تسمع أخباراً عن أخو يك مبارك وسالم..؟

كان حمود عائداً من المدرسة.. وكان يتوقع السؤال نفسه الذي بدأ في هذه الآونة يتخذ طابعاً خاصاً، و يثير في عقله إحساساً بمصير يجهله.. وقبض الشيخ على الحقيبة الصغيرة.. ولف وجهه بابتسامة انتزعها من فمه المكدود..

— هيا يا بني اذهب وساعد أختك على الرعي.

وانطلق حمود ليعيش في دوامة الكلام مع أخته.. ومع ماذا؟.. وكيف؟.. وثم بعد.. وأشياء من عبث الأطفال.. وأشياء من تطلعات ليس لها حدود..

— ماذا قال أبي لك اليوم..؟ إني أخافه..

— وأنا أيضاً..

— يا حبيبي سيعودون يوماً.. أنا متأكدة.. وسيأخذوننا معهم..

وتركته لتمنع الماشية من الفتك بالزرع الأخضر.

— هل تذهبين معي لنشاهد مباني الشركة الجديدة..؟

— أبي لا يسمح بذلك، قلت أكثر من مرة.. أوه.. أر يد أن أتعلم.. كيف يمنعني من الذهاب إلى المدرسة؟.

— لكن سوف..

ومدت يدها تر يد أن تسكته بلكمة خفيفة.. وكان يعرف ذلك.. لقد قفز كالحمل وابتعد وهو يردد: أنت كبيرة.. أنت كبيرة.. وأحكمت وضع اللثام وعلى فمها ابتسامة، وفي عينيها احتجاج..

أصبحت حياته مجموعة من التجارب.. تتقارب وتتباعد كأجزاء من حلم طو يل..

تجربة واحدة.. تجربة واحدة عاشها في ذهول.. وكانت قدمه تزل وهي مثبتة على التراب الصلب.. وهي لا تعرف الزلل.. غير أنه روض نفسه واغتصب منها الاعتراف بالواقع الجديد ودخلت الوحدات الزراعية.. والمدارس والمستشفيات وأشياء أخرى في دائرة حياة النهار والليل، وانتهت التجربة.. وغفا تحت ضغوط الميل حيناً، والاستسلام حيناً آخر..

ولم يكن شيء من هذا يمس حياته الشخصية أو يرغمه على الالتصاق به لكنه ولّد فيه حساً مرهفاً بمصير ما..

— من هذه الجماعة القادمة..؟

ونهض الثلاثة وامتدت ظلالهم تتوسد أشجار النخيل النائمة على أيدي الأصيل ولحقت الفتاة بالماشية ونبح كلبها وضغط الصغير على الكلام:

— المعلمون يا أبي..!!

وتناول الشيخ عصاه وخلف الاستراحة القصية التي يلتقي عندها بأشيائه الثمينة قبل العودة إلى البيوت الرابضة تحت أقدام الجبال..

— طاب مساؤكم..

وردوا عليه بتحيات مختلفة وصافحه بعضهم وتركه آخرون، واستأذنوا منه وواصلوا سيرهم عبر الحقول.. وأسقط الشيخ نفسه باطن الأرض كالشمس بين الجبال.. كالنهار في جوف الليل.. ثم.. ثم دقت أجراس العودة.. وفي العيون بقية من كلام وفي الحقول الكلام كله..

— حمود.. ألم تسمع أخباراً عن إخوتك..؟

كيف سمح لابنيه بترك مراتع ربعهم والنزوح إلى المجاهل.. كيف..؟ هل انتزع منه الذهول أثمن ممتلكاته.. إنه هو الذي لا يتعثر خطوة.. ولا تلين كلمته.. لقد فقد أم حمود فهل يفقد مبارك وسالم..؟ ما هي فاعلة لو كانت على قيد الحياة..؟ وتوتر وجهه وأحس بحالة ضعف مدمر ذكره بالسيل الكبير الذي أغرق زرعه وجرف أجزاء من أراضيه..

ليت مبارك وسالم بجانبه الآن.. هناك كما يروي أبوصالح لا يرحبون بالحي.. يتحركون كعرباتهم في كل اتجاه.. و يزرعون الأرض بالاسمنت والحديد..

وسرح بفكره في حقوله الخضراء، وحلق فوق أشجار نخيله، وشعر بجريان الحياة في

غزارة، ثم علقت عيناه بوجه فتاته، واستعرض أبناء القرية، واحداً واحداً..

— حمود الم تسمع أخباراً عن إخوتك..؟

وأخذ يقلب رواية أبي صالح و يطرق الأرض بعصاه و يتجول في أنحاء القرية في مراجعة شاملة، وأحس بالمد والجزر في حركة الحياة ورشحت ملامحه بملايين التوقعات..

— العشاء يا أبي..

وترك حمود كتبه مفروشة على الحصير وغمز بعينه لأخته وتطلعا لأبيها.. والتقت العيون في حركة مسرحية غير أن الصمت المريب كان قد خيّم على ذلك الليل.

وتفجرت ينابيع الخوف.. وانسابت في كل اتجاه.. وتوالت الصفعات على رأس الشيخ حتى أصبحت مقطعاً من شريط تفكيره، لا ينفصم كتلك الذكريات التي سحبها عقله من عهد آبائه وأجداده..

لكن لا.. لا.. لن يصل الأمر إلى هذا الحد.. لن يتخلى عنهم.. هذا جنون.. هذا مستحيل.. هذا مستحيل.. مستحيل.. لقد كانت هذه المجموعة هي البقية الباقية التي تمد دمه بالحرارة وتشجع أيامه على مواصلة السعي.. وسرت عدوى الخوف إلى صغيره وفتاته.. كان الشيخ يرمي بثقله كله على هذه الأجسام الغضة العطوفة.. وكان هذا الحاجز قد تعب من ارتطام الأصوات التي تموت دون أن تخلف أصداء..

إن مسودة حياتها قد نقشت بيده على حبات الرمل المتناثرة هنا والمتماسكة هناك.. صحيح إنها ألقيت يوماً في زوايا النسيان وفي اللحظة ذاتها التي احتفل فيها العالم بدنياه وغنى نشيد حياة جديدة.. لكنها ظهرت فجأة ظهرت ملونة وبحروف كبيرة.. وسحب هيكله المتداعي إلى منزل الشيخ عواد.. لكنه تذكر فجأة أنه مات.. واستدار.. وحث خطوه إلى مجلس الشيخ عمار..

— أهلاً أبا حمود..

وجال ببصره المرهق في وجوه القوم..

— أهلاً أبا حمود..

والتف المكان برداء ضبابي.. وأخذ يتحسس أيدي الرجال الخشنة..

— أهلاً أبا حمود.. افتقدناك..

واستمر الرفاق يتنقلون بين الحواجز حاملين على أكتافهم بقايا ميراث يحتضر..

وانفرد بنفسه عن الجموع وشعر بالتعب وارتعشت يده.. فتناول عصاه بعناية وساقته

قدماه إلى مقهى القرية، ولأول مرة في حياته..

— أبا حمود..!!

قال أحدهم في احتجاج ظاهر.. وأضاف ثان: «واحد حجر يا عم». وأنهكت الآخرين عاصفة من الضحكات الهستيرية، وغرس الشيخ عصاه في الأرض وأحنى هيكله كجذع نخلة عجوز ظمأى..

— أكمل.. صاحوا.. وأشاروا بيد واحدة إلى رجل كان مشغولاً بإشعال سيجارته في استهتار صريح و..

وأحسّ الشيخ برغبة عارمة لالتقاط حكاياتهم.. غير أن شيئاً ما لا يعلمه كسر عكازه.. لوى ذراعه.. وهشم تفكيره.. طحن في فمه زجاجاً حاداً.. فانتفض في فعالية مخيفة.. وتحرك يمد الخطا.. إلى أين..؟

لا يدري..!!

وغالبه التعب.. وتوقف وشعر بحاجته إلى من يسنده.. ورفع ناظريه يستجدي الراحة.. فتعلقت بمباني الشركة الجديدة.. وضرب بعقله في عمق الحياة.. وراوده أمل مجنون في حياة أوسع وأطول.. وتذكر حمود وأخته..

فاستجمع قواه.. وعاد إلى البيت..

وتطلع في وجوه صغاره برقة مفعمة بالحنان..

وبارك سعي سالم ومبارك..

وتمنى لو يحلم كفتاته وينام على ذراع حمود..

٢٧ ذو الحجة ١٤٠٠هـ



من أرشيف الحاضر

من أرشيف الحاضر

حركت ذراعيها.. و.. قفزت مثل قطة مدللة فرحة.. ووقفت أمام غرفة نومها لحظات.. لحظات و يفرشون طريقها ببساط أخضر و يرشونه بنور كثيف..

— أهلاً بالهانم الكبيرة...

وتتفجر عيونهم إعجاباً ودهشة وتخطو هي.. تخطو واثقة.. تخطو في فستانها الجميل وحذائها العالي الكعب.. وقسماتها الحلوة.. و يفسحون لها الطريق في صمت مثير.. وانحناءة معبرة..

— أهلاً بالهانم الكبيرة..

وعدلت عن فتح غرفة نومها وأزاحت خصلات من شعرها الطويل المنسدل على وجهها بحركة أنثوية بارعة.. واتجهت إلى مرآة الصالون..

— يا حلاوة يا عزيزة..

وهف على وجهها نسيم شاطىء مزروع.. وتنفست بارتياح وفاضت عيناها بمتعتها الكبيرة.. لحظات.. لحظات وتنتقل إلى أملاكها الخاصة.. تدخل الشمس من كل نافذة.. وتلف أشعة القمر على ستائرها الفخمة.. وتنثر في كل ركن زهرة: حمراء وبيضاء.. وترش عطرها المفضل على السجاد الثمين..

وتحرك عنكبوت وتوقف صرصار.. وتطلعت هنا.. وهناك.. في زوايا الصالون وسقفه.. وابتسمت هازئة بمتاعها القديم.. وغادرت الصالون.. إلى أين..؟ هي نفسها لا تدري.. وترنمت: «الحياة حلوة.. الحياة حلوة..» ودخلت غرفة نومها وركنت جانب سريرها العتيق..

— نحن هازرات.. هزرت..
— يس مدام..
— خدامتك أم توني..

وتنتهي تعاستها.. وتخلف وراءها ركام الذكريات الأليمة.. ويكون الباب مفتوحاً.. لابد أن يكون كذلك.. لا يفتحه الخادم ويسير الموكب.. يسير وسط الشوارع الواسعة المكان الأنيق.. في السيارة الفخمة..

وتحركت أفكارها إلى الأمام وإلى الخلف.. وضحكت.. ضحكت حتى الموت.. أوه.. الجمل كان سعيداً بحملي.. لقد انتشل خاطرها ذكرى ماضيها البعيد وألقى بها أم زحف حاضرها المحموم.. أوه الجمل.. هل أجيد ركوبه الآن..؟

الله يسامحك يا أبي.. لحظات.. لحظات وتنساب الجداول العذبة، وتخضر الأشجار اليابسة.. وتشارك العصافير فرحتها بالحياة والانسجام..

وتحرك الموكب.. ليت الجمل يراها.. وضحكت.. ضحكت حتى الموت.. وعبق المكان برائحة الهجرة..

— ألو حبيبي لا تتأخر.. أنا في انتظارك.. جاهزة.. جاهزة..
— ألو..
— احضر معك الكاميرا.. واعلن هذه المناسبة في الجريدة.. هيا.. لا تتأخر.

— ألو.. أنت مخطئة..

— أتعرف أنني أحبك حتى الموت..

— أنا لست أبا عادل..

— أنا لست أنانية.. بما أنك تحبني فأنا أحبك.. لكن من أحب من..؟

وضحكت.. ضحكت.. الدجاجة أم البيضة؟. وغاصت وراء الرموز الغارقة في لجة المحيط.. أين تكمن القوة..؟ في الضعف..!! في القوة نفسها..!! نضعف فنبحث عن القوة.. وعندما نجدها نتصارع لتعزيزها.. فنفقدها.. ونضعف.. ومن ثم نعيد البحث عنها..

واعتراها خوف غامض شحن أفكارها بتوقعات مريبة.. وتنبهت لسماعة التليفون الجاثمة على خدها..

وعادت الحركة إلى خيالها المتوثب..

— ألو.. ألو.. ألو.. أبو عادل..

ألو.. ألو.. ألو.. وقلبت السماعة في يدها ذاهلة.. ورسمت عيناها على التلفون علامة استفهام.. لابد أنه هو.. سيأتي حالاً.. لقد استعجلته ما أسعدني!.

وخطفها فكرها إلى عالم أحلامها المثير.. لحظات.. لحظات.. وترمي نفسها في ألف مرآة.. وتنتقل بين ألف غرفة.. وتتأمل هذه الوردة.. وتلمس تلك وتشم الأخرى.. وتستقبل المساء بألف وعد.. ووعد.. وندت عنها آهة عابقة بالرضا..

سيأتي حالاً.. وتعلقت أصداء الجرس بجدران البيت الضيق..

— أهلاً حبايبي.. سلم نفسك يا عادل.. استعد.. وطبعت على رأسه قبلة حارة، وأضافت: لقد حكمت المحكمة على المدعوة أماني بإعدامها تقبيلاً.. وضحك الثلاثة.. ضحكوا في سعادة غامرة..

— تفضلوا في فيلا والدكم الفخمة.. واغرقوا في الضحك.. وبادلوا البيت الحزين نظرات ازدراء مهينة..

— أيها الأبناء الأعزاء وفروا ما عندكم من فوضى لمكان آخر.. وشدت ابنيها بحركة مسرحية إلى كوم من الملابس..

— ماما أنتم عاوزين تسيبوا البيت..

— أليس هذا الثوب جميلاً؟ وهذا حذاء جديد.. وهذه..

— ماما أنتم عاوز ين..

— مالك يا عادل..؟

— أصحابي يا ماما.. سوسن وخالد، وأحمد وعماد..

— اقتربي يا أماني.. سألبسك بنفسي..

— أنا مش حالبس حتى يلبس عادل..

والتفتت.. وتطلعت ونادت عادل.. عادل.. وسقط شيء ما أمامها.. خلفها.. في جوفها..

— عادل.. زوغ يا ماما..

وامتدت يدها البيضاء.. ارتفعت واختفت داخل شعرها الأسود..

— طيب والله ما أنا لابسة..

ولف الكون رداء بال أصفر.. وانفردت موجة حائرة من البحر البعيد..

— العتبة ازاز والسلم نايلون.. نايلون..

وصحا ذهنها على عزف الأمنية الغالية.. واستعاد جنونه.. وتركت ابنتها تداعب ألوان الملابس.. ومدت خطاها في أنوثة مغر ية..

— الليلة عيد.. الليلة عيد..

وخطفت صورتها من المرآة.. وأدارت مفتاح الراديو.. كل شيء يهتف باسمها.. و يغريها بالصعود، و بنت العمارات الكبيرة.. واكتسحت الجبال.. وشقت الطرق.. وفرشت السهول بالبلاط الناعم.. وسخرت من أساطير الوادي، ورقصت على هدير المحركات.. لِمَ لا..؟.. وحب اللحظة الراهنة قد ملأ صدر البدو ية المهاجرة..

— ماما.. بابا على التليفون..

— ألو..

— ألو.. هل أنت جاهزة؟.. يا أغلى وأحلى..

طرحت حواسها على ظلال كلماته الرقيقة..

— نعم.. الآن.. وكل وقت..

— لن يطول انتظارك.. سنتناول طعام الغداء في الفيلا الجديدة..

اختاري لعادل أفضل الثياب.. وحلي أماني بالأسورة الجديدة..

وركضت وراء مشاعرها.. ولمعت الأحلام في يدها كلآلىء الخليج..

— ألو.. ألو..

— أنا في الطريق.. لن أتأخر.. ليس ثمة ما يشغلني.. مع السلامة..

وتوسطت المبنى الفخم، وتهادت مغردة.. واستلقت في أحضان الباسم المتجدد..

— هذا أنت يا عادل..

واكتظت عيناه بأسئلة الرجال.. وسقطت دمعتان كبيرتان..

— عادل عايز أسورة يا ماما..

وأشارت أماني إلى كف يدها وغمزت مشجعة على صفعه..

— مالك يا عادل..؟!

وجرى دم حار إلى جبهته.. وندى جبينه.. وانفجر باكياً.. ووسد مشاعره الطيبة صدر أمه..

— عادل.. حبيبي..

ونفرت الدموع الحمقاء إلى عينيها.. وأطلق كل منهما إلى سبيله..

.. عادت إلى الخلف.. بعيداً إلى الوراء.. الوراء البعيد.. إلى طفولتها، حيث كان أبوها يحملها على ظهره، ويجوب الساحات الواسعة من الأرض اليابسة والجبال المزروعة بالنتوءات والأخاديد..

وأحسّت بميل إلى الاستلقاء على عشب أخضر.. واستعرضت شريطاً مصوراً لأخبار الأمس.. وتوقفت عند فجر شبابها.. وتطلعت في وجه ابنتها اللاهية بدميتها الجديدة..

وضج المكان بأبواق السيارات.. وانتشرت رائحة محركاتها الصاخبة..

فانتشلت نفسها من توسلات الماضي، وضعف اللحظة بسهولة..

واستعادت صحتها.. وهرولت..

— أبو عادل..

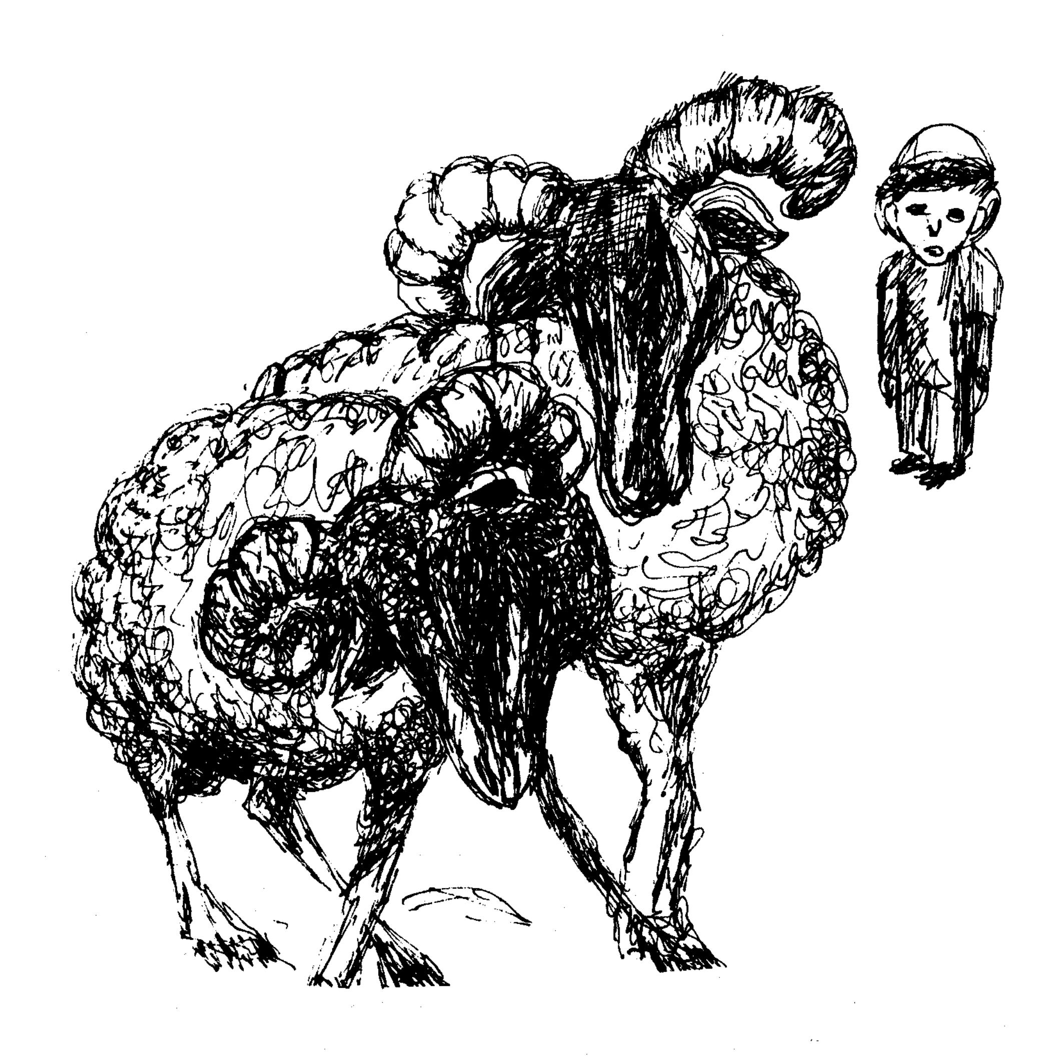
— السائق بانتظارنا..

وتحاشى نظراتها.. ودخل غرفة نومه.. ورمى نفسه في أثاثها القديم.. وانسلت الذكريات من الملابس البالية.. من الخطابات المبعثرة.. من كتب الدراسة.. من الجدران المتصدعة.. وشرعت تحفر جوف عقله مأوى لها..

— أبو عادل.

ومسحت ابنها بنظرة غائمة.. ولحقت بزوجها.. ارتمت إلى جانبه.. سلمت يدها ليده.. وتنشقا رائحة الماضي في ضعف مدمر..

١١ محرم ١٤٠١هـ



زمان العجايب

زمان العجايب

الأغنـام طـليقة والحوانيت الصغيرة والمقهى الوحيد ترك مفتوحاً .. ومارس الأطفال حريتهم للمرة الثانية بعد زواج أبي عوف ..

— ديم الشباب يا رب ..

— والله رجعت لديارك ..

وحمـل الهـواء زغـار يـد مـزنـة الـعاطف في تبرج ألهب الحركة .. وارتفع صوت دف وأشعلت نار هناك .. ورف علم أخضر على شاحنة أبي قاسم .

— هذا أول الغيث ..

— دي عشرة .. والعشرة ما تهون .

الليـلة مـوعـد الـقـريـة مع الفرحة الكبيرة وعندما تبتهج القرية تفتح ملفها كله .. تـشرق الشمس يستدير القمر .. تتزوج العذارى .. ترقص سنابل القمح وتبشر العصافير بربيع الحياة ..

— حياكم الله ..

وتوافد شيوخ القرية يمدون الخطا.. يرخصون الضحكات.. يخطفون الحديث كأنما الأمطار هطلت فجأة وسالت الأودية بعد جدب طويل..

— يا عز «أبوزيد»..

— يا عز القرية كلها..

ورفع أبوزيد ذيول بشته العزيز الذي ورثه عن والده، وتقدم بخطوات القادة ملوّحاً ومصافحاً.. حياكم الله..

اليوم، لي أن أرفع رأسي..! أولم أشر إلى بيتي.. احتفلوا.. هه.. فرحتي لم تعد غائبة.. إن أيامي ستكون أعياداً.. أعياداً كلها.. احتفلوا.. هه.. سأكون صريحاً معكم، لقد حسدتكم.. سامحني الله.. تمنيت لو أجرب محراثي الكبير في صدوركم.. احتفلوا.. ها هو زيد يردّ اعتباري.. يمسح عليّ أيام الحزن الطويلة، فتغدو لحظات مائجة بالسعادة.. سامحني الله، كنت شقيًّا بفرحتكم.. شقيًّا بانتظاري.

— والله رفعت رأسك يا «بوزيد»..

— حياكم الله..

ومرت الرؤى أمام فكره في تتابع سريع.. الكوخ الذي نشأ فيه زيد.. البقرة التي كان يحبها أيام الدراسة لحظات الوداع.. مأساة الانتظار...

— صبرت ونلت يا «أبوزيد»..

— حياكم الله..

وارتفعت به أحلامه إلى آفاق رحبة.. الأكواخ تتحول إلى عمارات شاهقة بيضاء كتلك التي رآها في المدينة.. السيول التي تفتك بالأرض، وتجهض الأشجار وقد حجز مدها الرهيب المسالك الوعرة في الجبال العالية وقد روضت للركوب..

— متى الفرج يا أبوزيد..؟

— يأتي بإذن الله..

وانزلق الشيوخ على حافة عالم عريض واسع سرقتهم الأضواء.. ركضوا.. اطمأنوا.. خلطوا الأوراق..

— زيد وصل.. وصل زيد..

والتقط الشيوخ عصيهم.. اصطفوا كحرس الشرف.. ولمع زيد في الأفواه المعتقة..

— زيد.

وعصره أبوه.. امتص دمه.. دلق عليه مشاعر غالية..

— زيد.

وتراجع الشيوخ خطوة إلى الوراء.. طعنوا من ظهورهم.. تقدموا.. انسكب ماء حار في أفواههم.. همسوا..

— ايش فيك يا زيد.

وغرزوا عيونهم في شعره المسرّح بين ثنايا قميصه الضيق على حواف بنطلونه «الجينز» وتدخل أبوزيد.. عزز إرادة الإجماع.. حسم الموقف لصالح ابنه.

— هذا لزوم العمل...

وتقدموا.. التفوا حول زيد.. تسابقوا على يده..

— أهلاً وسهلاً..

— ميرسي..

— ترسي في ديارك.

— ثانكيو.

— ما تشكلك أمك.. ولا تترك صديق.

والتهب الفحم.. ودارت القهوة عبق المكان برائحة البخور.

.. تنشق أبوزيد مجد ابنه.. وزرع فرحته في سخاء.. فرد جناحيه..

— أرعد.. أبرق.. أمطر..

— أسعفونا..

وانتشوا بنبض تراثهم وحلقوا في عالمهم المثير..

يا صاحب الدار حنا اليوم زوارك..

ربي يديمك بنا و يعمر ديارك.. وفيت بالجود.. لكن الجود من آلك.

دي ليلة سعيدة وفرحتنا هلت بأنوارك..

— يا زيد.

ولوى الجميع أفكارهم الجامحة.. اختصروا المسافات.. صمتوا.. اقتربوا.. شدوا عضلات وجوههم.. لقد تكلم كبيرهم وعندما يتكلم يتحولون إلى متهمين في محكمة عادلة.

— يا زيد و يش الديار التي شالتك عنا..؟

— باردون أنكل.. لم أفهم.

— والناس اللي عاشرتهم هالمدة الطويلة..

— ياه.. كثير آوي..!

— من طول الغيبات جاب الغنايم..

— الاختلافات الجذرية في محاور انطلاق المجتمعات تحتم بالضرورة تبايناً ملموساً في الممارسات الفعلية للناس.. و..

— يا ابن الرجال عوضنا الصبر خير.

وخطف الشيخ عصاه ولوح بها.. طرق الأرض.. اهتزت شفتاه.. نفث آهة يأس.. حمل سنينه السبعين وانطلق في خفة الجواد الأصيل..

.. وتبعه آخرون..

— عشنا وشفنا يا زمان العجايب..

وشد الباقين إلى انتظار شيء ما.. شيء كالذي يدفع رجال العلم إلى التمتع بمنظر دمية وأطرق أبو زيد.. انكسر سيفه.. نزع بشته.. انسرقت أمانيه العذاب..

— وهذا الذي قلته عن التحولات الاجتماعية ليس رأيي وحدي.. بل تشاركني فيه صديقتي «مادولين و..»

مسح أبو زيد صدره وتحسس جبهته.. عض شفتيه.. دارى عن أقرانه دموعاً بكماء، ولهذا أغناني التيار الحياتي في «اليونايتد ستيتس» عن الدراسة، فاكتفيت بمردود الخبرة الواسعة..

وهوى كوخ أبي زيد.. انسل من تحت الأنقاض مسح مواشيه بنظرة أب مريض سحب نفسه على الدرب العتيق.. طوح بها على قمم الجبال تنشق رائحة حقوله.. تصفح الماضي.

..أحس بزحف أيامه.. اندس في الليل..

مشى.. توقف.. مشى.. خارت قواه.. أسند نفسه على الجدار الحجري القديم..

٣ صفر ١٤٠١





النسخة الضائعة

النسخة الضائعة

كان يتلقفني كأخ عائد من غياب طويل في مهجرنا.. ما باله الليلة..؟

— ترك يدي ممدودة وتحيتي معلقة في فمي.. لويت ذراعي.. ابتلعت ريقي.. تبعته.. مساء الخير.

وسد قلمه على كوم من الأوراق.. ضغط راسه بين يديه.. انتظرت.. وضعت يدي على جانب مكتبه.. ارتكزت.. عزفت.. سحبت كرسياً وألقيت نفسي عليه:

— مساء الخير..

واستمر كالتمثال بنفس الوضع ونفس التعبير.. وتطلعت هنا وهناك أداري حرج الموقف.. كتب مغلفة بالإهمال.. عنكبوت لاه في مد شبكته على لوحة قديمة كلاسيكية كبيرة.. ذرات رمل عالقة في فم شخصية أدبية لا أعرفها.. دمعة موصولة بعين طفل ثري.. دوريات ومجلات وصحف ونشرات عليها بصمات قدم عابث.. وفي إحدى الزوايا تقف أغصان عارية..

— قلت مساء الخير.. ألا تعي..؟

رفع عينين ترشحان بالإرهاق.. صافح وجهي.. ابتسمت.. استمر..

— أرجو أن تكون بخير.

استمر.. ابتسمت.. انتابني خوف.. شرد تفكيري.. قطع مسافات طوال.. واستمر، ركضت إلى الباب.. عدت.. حاولت أن أجد مهرباً.. سحبت أحد الكتب المكدسة أمامه.. تظاهرت بالقراءة.. سرقته بنظرة خائفة.. عيناه لا تزالان لاصقتين بوجهي.

— أستودعك الله.

وهممت بالقيام.. فأشار بيده .. لمّ رأسه بين يديه وعيناه لاصقتان بوجهي.. فقدت أعصابي.. صمّمت على الخروج.. اتجهت نحو الباب.. سحبني صوته..

— يا أنت..

— أنا..؟!

— أنت مجنون..!

— أنا..؟!

— اجلس..

فقدت توازني.. انقدت ببلاهة.. جلست كتلميذ مدارس أيام زمان.. صفع مكتبه.. استدار.. تحرك ١،٢،٣... اصطدم بجدار الغرفة.

— حاسب..

— اسمعني جيداً..

— .. هل ارتكبت جريمة قتل..؟

— أأ.. ننا؟!

— لم ينتظر إجابة.. كان قد رمى يديه خلفه.. جر خطواته على مساحة واسعة.. انتظرت.. تطلعت إليه.. أدهشتني ملامحه الطافحة بالذنب.. قفزت كالملدوغ.. أمسكت بذراعه.. شددته بقوة..

أيها المجنون

— أجهش بالبكاء وشحت معالمه بفيض رهيب من الدمار النفسي.

— لقد قتلت.. قتلت.. ارتكبت جريمة قتل.. جريمة قتل.. جريمة قتل.. قتل..

— من..؟

— قتلتها.. كنت مضطراً.. ليتني قتلتها بوسيلة حديثة.. ما أبشعني!.
— كيف..؟
لو رأيتني وأنا أرصد مصيرها بارداً كالثلج.. صلباً كالصخر.. أوه ما أبشع الإنسان حينما يتخلى عن قيمه!. غرزت نصلاً حاداً في صدرها.. لعقت دمها الحار المتدفق..
استسلمت لقدرها.. نزفت ألماً ولعنة.. ودار لسانها الصغير في فمها المتكور..
— وحش..!
كانت تنقل قدمها كعصفور ينعم بسخاء الربيع تحمل في يدها زهرة بيضاء.. تتأملها تنصت لحديثها.. ربما كانت هدية حبيبها.. نعم تذكرت.. كان أبوها يسميها عاشقة الزهور..
أوه.. ما أبشعني!. كنت أحمل الموت.. وكانت هي تحمل الحياة.. يهديها حبيبها زهرة وأهديها أنا خنجراً.. يا إلهي..!
— ما جزاء من قتل نفساً بغير حق..؟
— وحيدة والديها.. أكملت تعليمها الجامعي.. عربية النشأة.. عربية الدراسة والتفكير.. أصيلة كأرضها.. معطاء كأرضها.. مخطوبة..
— الويل لك..
تبتسم فتشعرك بوهج الحياة وشحنات العواطف.. وترمقك، تحرك رموشها الطويلة فتشعرك بأغاني الفرح الراقصة المائعة بالنشوة والنداء.
— سأبلغ عنك.. سأبلغ..
وتناولت سماعة التليفون..
— توقف.
قال بحدة.. توقف.. ثم انفجر ضاحكاً.. وتوقف.. وفجأة تحول.. خطا نحوي.. ملأ قبضته بالبشر.. تأكدت أنه مجرم فعلاً..
— أنت شريكي في الجريمة.. رأسان بسيف واحد.. هل فهمت.؟ أنت شريكي في التنظير والتنفيذ.. أنت الرأس المفكر.. أنت المجرم الحقيقي..
— أأ.. ننا..
دفعتني إلى القتل.. حرضتني عليه..
— أنا.. أنا..؟

— أنت .. سألتك كيف أتخلص منها ..؟ قلت: أقتلها .. القتل أفضل طريقة لمداراة نقاط الضعف ..

.. أنت .. أنت قلت هذا ..!

— أنا؟

وهدأ .. وخطا إلى مكتبه في تثاقل .. أدهشني لكنه لم يتركني أفكر ..

— ألا تذكر ذلك المساء؟. أنا ما زلت أذكره .. أذكر أنك قلت وبالحرف الواحد: إن المرور على المشاعر الإنسانية دون توقف عندها وتأمل فيها ليس أصالة فكرية ..

فالذين يتعاملون مع المشاعر الإنسانية كما يتعامل المتسكعون في الحدائق العامة مع الأزهار هم في الحقيقة ليسوا عشاقاً بقدر ما هم تجار محترفون.

هكذا كانت قصتي معها .. استوقفني جمالها كوردة عابقة بالوعد، لكنها محتمية داخل السياج الشائك .. أردت أن أقترب أبعدني الحاجز .. مددت يدي .. كانت بعيدة .. حاولت أن أستنشق عبيرها سلبه الهواء عنوة ..

— كفى .. كفى ..

— سلبني رشدي .. صرخت في وجهه .. صفعته .. انزاحت غيوم الحيرة والضياع .. بدا أوضح رؤية، وأكثر تعقلاً ..

— هي .. وأنا .. وأنت ضحايا هذا العالم يا صاحبي .. أحياناً تنسل أمانينا العذاب بين ركام الإجهاد والمعاناة فتموت في الغربة .. أو تعود شاكية على قميصها الأبيض بقايا دم مهدور ..

أنا شخصياً أفضل أن أقتل أمنيتي بيدي من أن أراها تعود بيد الآخرين .. وحينما أكون شقيًّا لن أدع الناس ينعمون بالسعادة ..

— كفى .. كفى ..

— يا صاحبي هل نسيت ما قلته من أن إيحاءات الشعور الإنساني تستوقفك ..؟ لماذا تبدو قاسياً الآن؟. وصفعته .. أثارني برود أعصابه ..

تمنيت لو أحطمه ..

أحسست برغبة وحشية هبت داخلي عاصفة سوداء .. أصبحت راغباً في التدمير ..

مجنون.. عنيف..

— اصفعني.. جرب قوتك.. إنني أشعر بالاطمئنان في ظلال القوة.. ولمعت عيناه ببريق الرضا..

وتوقفت عن ضربه.

— لا تتوقف.. ألم تسمع هتاف ناديا..؟

إنها راضية عني وعنك..

— ناديا.. من ناديا..؟

— ناديا الضحية..!

— ضحية من؟

— ضحيتي..

— ضحيتك..؟

— قتلتها بخنجر حاد..

— أين..؟

— في روايتي الجديدة..

أحسست بثقل في رأسي.. الضباب كثيف.. ارتخت مفاصلي.. أسندني برفق.. وضعني على كرسيه المريح.. لففت رأسي.. أسندته بيدي.. التقت عيناي الزائغتان بوجهه.

— هل أستدعي الطبيب..؟

— عقلي يبحث عن صور ضاعت نسختها الأصلية.. مصيري مرتبط بمصير قيمتي.. أشعر بخوف غامض.. في فمي سؤال كبير.. الدم خامة جيدة للتجميل.. هل يدلقون دمي على الشوارع..؟

أتمنى لو أن أحداً يبكي عليّ.. يلعق دمي..

يسترد كرامتي..

يؤكد ذاتي..

يعيد لي أصالتي المسلوبة..

وأحسست برغبة في البقاء.. وانسابت دمعة كبيرة ساخنة على لحيتي..

٨ ربيع الأول ١٤٠١هـ



رحلة أمل معاصر

رحلة أمل معاصر

البطاقة الشخصية؟

سلمته طائعاً ـ اسمي .. مؤهلي .. عنواني ..

اكتفي بالأوليات .. أطرق ساعة .. عض قلمه .. أدار جسمه المترهل .. حمل كرشه في خفة أذهلتني ..

أشعل غليونه .. وضغط على الجرس ..

— حاضر يا سيدي ..

— كوبين شاي .

— حاضر يا سيدي .

هل تعود الأيام الغوالي ..؟ أينزاح الصدأ .؟ تمطر السماء .. تخضر الصخور .. يدعونا الأصيل عند الحقول .. لقد سلمنا أنفسنا لأيديه الممدودة .. ما زلت أذكر .. كانت سنابل القمح ترقص، تبارك اللقاء الودود ..

— لكن قل لي:

لم يشرد خيالي بعيداً.. الماضي مرتبط بالحاضر.. ومستقبلي معلق بفمه.. ووجدتني أقلد خادمه.. حاضر يا سيدي..

أثرى التليفون حياتي بملايين التوقعات.. الفرصة مواتية، والناس طيبون..

— هالو مؤسسة.. (..) يا هلا ومرحباً فيكم.. صحتنا جيدة.. الشغل.. الشغل اتقفل هاليومين.. الغزو الكوري ياعم.. تصور عملية «رديم» أخذوها بناقص عنا ثلاثة ملايين ريال!!

وألقيت نفسي داخل العملية.. مددت يدي للملايين.. قلت:

— خيرها في غيرها.

ألقى السماعة.. تطلع إليّ.. قرأت في عينيه إعجاباً.. إعجاباً!! إعجاباً بماذا..؟! قد يكون..! ربما كنت سبباً.. إنما الأعمال بالنيات..

— خيرها في غيرها.

.... قفز كالملدوغ.. خطا فرحاً.. وقف أمامي.. أريد أن أقف.. منعني.. يا له من متواضع كريم.

رفعت عيني بكل ما فيها من حوافز اللحظة الراهنة.. ابتسم.. انفلتت ضحكة كبيرة تراقص كرشه وضعت يدي عليها.. أنا لا أريده أن يموت..

— أنت الرجل الذي كنت أبحث عنه.

— حاضر يا سيدي.

— لكن قل لي.

— حاضر يا..

ورفع يده.. لقد فهمتها..

ستوب..

وكتمت أنفاسي أيضاً..

— قل لي ألك فلسفة خاصة في حياتك؟

— أبداً..

— هذا يعني أنك لا تفكر كثيراً.

— حياتي هي التي تصنع القرار..

وفكر.. ضغط قدمه على الطاولة الصغيرة.. اندلق كوب الشاي.. لوى عنقه كمن

يغتصب ذكرى قديمة..

— صدقوني لقد أسفت على الشاي..

نطق..

— رائع.. رائع.. أنا فراستي لا تخيب في الرجال.

وانتابني فرح عمر كياني بنشوة لذيذة.. واتسعت الدنيا.. أصبحت كبيرة.. وركضنا أنا وزوجتي وبناتي الثلاث وابناي.. وابتسم والدي العجوز.. ترحم على أمي.

— لكن.. لماذا تركت عملك؟. أجبني بصراحة..

— لقد تركني هو.. أنا لم أتركه..

— لم أفهم..

— أعني أن الشركة التي كنت أعمل بها..

ودار على عقبه كمن يؤدي حركة رياضية ـ بدا لي خفيفاً مخيفاً، شعرت بنذير شر رفع قبضته، وصرخ:

— كفشوها.

— لا يا سيدي.

— خسرت..

— لا يا سيدي.

— نهبت..

— لا..

وتنفس.. استهلك جميع الأوكسيجين الموجود بالغرفة.. بدا مجهداً، سمعت ضربات قلبه شاهدت قطرة عرق كبيرة تتفتت على جبهته.. أحسست بخوف..

— يعني لا هذا، ولا ذاك.

.. خطا.. اصطدم بمكتبه..

— يعني.

— لا هذا ولا ذاك.. يا سيدي..

— فهمت.. أنت رائع..

وشيدت بيتاً يسعنا جميعاً.. وقطعت شارع القرية الوحيد بسيارة جديدة.. وأضاف

الأولاد إلى قاموس معرفتهم الكورنيش.. الحمراء.

وأنشدوا: بلادي بلادي.. وطافت عيناي بجمال مكتبه وفخامته..

انغرزت في مقاعد الجلوس الوثيرة.. ما أسخفني إن الأماني تسير على خيط رفيع.. طلب كوبين آخرين من الشاي.. جلس أمامي..

— قل لي..

وبتر جرس التليفون أجوائي الشيّقة كضيف ثقيل الظل..

— تقول إيه؟ سمر حالتها تعبانة.. هي فين الآن.. في غرفتها..

طيب.. دثريها.. أيوه.. استدعي الدكتور.. لا.. لا.. لا تقلقي.. مع السلامة

— الشفاء بيد الله.

— أنت لا تعرف كم أحبها.

— الأطفال نعمة من الله يا سيدي.

— الغريب أنه رغم الكشف الدوري أصيبت بنوبة تعب.

— التعب.. القلق.. الإجهاد.. هذه أمراض العصر.

— صدقت.. أنت رائع.. رائع..

أزورها..؟!! .... الزيارة واجب إنساني.. أنا.. أتألم لمرض طفلة.. سأزورها بالتأكيد.

وتذكرت زخات الدموع التي انسفحت على ابنة جارنا المسجاة على فراش الموت.. وتجسد المشهد يموج بالحركة الفاعلة.. دمعات حائرة في عين شيخ مسن.. شهقات امرأة.. أسئلة طفل..

— سأزورها اليوم..

وارتسمت معالم وجهه بشيء من النفور..

— لا.. لا.. لا داعي لتلك.. إنها تخضع لنظام وقائي شديد.

— أعدك بأنني سأدعوها.

— إنها رفيقة دربي.. وقد رزقت بقدومها.

— أهي البكر؟

— وضحك.. دفقت عيناه سروراً بالغاً وضحك..

— نكتة لطيفة.. أنت رائع.. رائع..

— نكتة..؟
— إني أحدثك عن سمر..
— سمر ابنتك..
وانتشى بفيض من السعادة غريب لم أجربه طوال حياتي وتواصلت ضحكات في جنون مدمر. واختطفت بصعوبة كلمة.. نو.. نو.. نو..
— أتعني قطة..؟
— إلهي أتوسل إليك.. ارحمني.. القطة ترفل في السعادة.. تنتقل بين الأثاث الفاخر.. تتناقلها يد ناعمة بيضاء.. إلهي إن كنت قادماً على حلال فيسره لي وإن كان حراماً فامنعه عني..
وطوقت يداي رأسي المريض وانساب صوت جميل دافىء «بابا» مغلفاً بالحرمان وارتفعت عيناي إلى أعلى: اللهم قو إيماني..
— أنت سرحان؟.. عموماً أشكرك على عواطفك الرقيقة تجاه سمر.. قل لي..
وسحب ورقة ونزع قلماً من جيبه:
— حاضر..
— ألديك أطفال؟
— متزوج.. وعندي خمسة أطفال، وأعول والدي.
— رائع.. رائع.. بقي سؤال مهم..
— ما هو..؟
وطرق الباب.. أدخل.
— الساعة العاشرة.. لديك ميعاد يافندم مع المستر هيوم ر يتشارد.. وتحرك.. المهمة كبيرة.. هامة عاجلة.. عدل نظارته مسح وجهه في مرآة صغيرة.. التقط بشته سحب علبة سيجار فخمة.. خرج.. ترك الباب مفتوحاً.
سيوافق على توظيفي.. أنا متأكد.. ألم يقل لي:أنت رائع رائع.. لكن من هو المستر هيوم ر يتشارد؟.. أنا خائف.. لا.. لا.. لا داعي للخوف، إن الذي رفق بقطة لا يبخل على إنسان.. ثم أنا إنسان مسؤول متزوج ولديّ خمسة أطفال وأعول والدي العجوز.. لقد سألني وأجبته.. أوه.. أنا خائف.. ليه.. ليه..؟. الضباب يلف المكان.. مازلت قادراً على الرؤية.. ما هذا؟

قطعة قماش سوداء .. دمعة صامتة .. قدم طفل مجروحة ..

— أنت جالس ليه يا ابني ..؟

الرجل مسن .. خلع الكفاح الطويل نضارة وجهه .. منحته السنون دراية بالحياة والناس.

— أنت جالس ليه يا ابني ..؟

ولاحظت يده ترتعش تحت المسحة الناعمة.

— أنا أنتظر المدير العام.

نظر كأب يحاول أن يستشف من خلال ركض الأيام مستقبل صغيره الوحيد .. أطال النظر .. أدرت وجهي .. أحسست بالضعف والخوف .. لماذا ..؟ لا أدري .. لعلني أخطأت ..!

— أنت جالس ليه يا ابني ..؟

— انتظر المدير العام (يا والدي)

— أنت بتدوّر على شغل ..

— بالتأكيد يا والدي

نزع عينيه من وجهي .. رتب طاولات المكتب .. مسحها بعجلة .. عاود النظر .. ماذا يريد أن يقول ..؟ مثل هؤلاء ليس من السهل قراءة وجوههم .. الساعة الثانية عشرة .. المدير العام دقيق في مواعيده .. لقد سمعت ضحكة .. أصبحت قادراً على التقاطها من بين مئات الضحكات .. إني أحب الفرح لنفسي وللناس .. هكذا أنا منذ الصغر .. وعندما كنت مع إخوتي نقضي الأمسيات في الحقول كان فرحي متألقاً .. لم أجرب الفرح الصامت أبداً .. ووقفت .. دخل المدير العام يلوّح بملف أخضر كمن يحمل صيداً ثميناً، وفجأة .. ودون مقدمات قال:

— بقي سؤال مهم.

— ما هو ..؟

— أجبني بصراحة .. لقد أصبحنا أصدقاء .. ما هو شعارك في العمل ..؟

— النزاهة .. الصدق .. النظام .. الدقة في المواعيد ..

— ماذا ..؟

— النزاهة، الصدق، النظام، الدقة في المواعيد.

هه .. صدق .. هه .. هه .

— إن شئت قل إني أخاف الله .

— انتهت المقابلة ..

— ومتى أستلم العمل ؟

— انتهت المقابلة .. المقابلة انتهت ..

— والعمل ..؟!

مسحت رأسي ، أشعر بإنهاك ، درجة حرارتي مرتفعة ، الدنيا صغيرة ، الطريق ضيق .. الشمس تموت .. انطفأت عيناي .. سحبت قدمي .. مددت يدي أتحسس الضوء .. ألقيت بجسمي على مقعد خشن .

— أنت جالس ليه يا ابني .

... أفقت .. يد مشدودة على كتفي .

يد من ..؟

تطلعت ..

الرجل المسن خلع الكفاح الطويل نضارة وجهه .. منحته السنون دراية بالحياة والناس ..

إنه هو ..

بالتأكيد هذا مكانه .

— أنت جالس ليه يا ابني ..؟

— أنتظرك يا والدي ..

— دي حكاية طويلة .

اجلس بجانبي ..

١٦ رجب ١٤٠١هـ



احكِ لنا يا أبا عوف

احك لنا يا أبا عوف

أبو عوف.. أبو عوف.. أبو عوف..

هتف أطفال الحي وتبادلوا أعين الفرح.. سيفتحون مدينته.. سيفتحونها سيقتحمونها.. يسلبون أشياءه.. «ولا خوف من أبي عوف».. علق هذا المثل على واجهات التعامل.. وتصدر مجلس الشيوخ الموقر.

أبو عوف.. أبو عوف.. أبو عوف..

— أنا عاوزة يروي لي حكايته مع السيل.

— اللي أخذه إلى البحر..؟

— دي حكايته مع الجن أحسن.

— حكايتي الأولى..

— حكايتي الأولى.

كور أبو عوف جسمه معطياً الإذن ببدء المهرجان الكبير وتسابقت الأيدي على دفعه هنا وهناك..

يمين.. يسار.. يمين.. يمين.. أمام.. خلف.. يمين.. يسار.. راسماً أشكالاً هندسية متداخلة.. أصوات متقطعة.. ضحكات قصيرة عالية.. أنفاس متلاحقة.. حركة تمسح الرمال..

— حكايته مع السيل..؟

— لا.. حكايته مع الجن..

— حكايتي الأولى..

— حكايتي الأولى.

عليه أن ينهض الآن.. ينفض الغبار.. يفجر الصمت.. يحسم الخلاف.. وقف على قدم واحدة.. أزاح الستار عن فم أسود كبير.. شنج يده.. مد أظافره الطويلة.. صرخ:

— الحرب قادمة.. تراجع الصغار.. تفرقوا.. اجتمعوا.. احتدم النقاش.

— أنا القائد..

— لا.. أنا القائد..

— السيل.. والبحر.. أما حكاية لطيفة...!

— الظلام والجن..

— حكايتي الأولى.

— حكايتي الأولى.

خطو المارة الرتيب يزرع الوحشة في الشمس الهاربة.. عيون الناس مليئة بالتعب والإرهاق.. ثغاء الغنم ينشر أردية الليل على سفوح الجبال.. والحرب قادمة: صرخ أبو عوف.. تعلن حالة الطوارىء.

— ما اسمك أيها البطل..؟

— أبو عوف الهمام..

— وجيشك..؟

فر بالكمال والتمام.

— أسلحتكم..؟

— ريش الحمام.

— أيها البطل الجبار أرنا كيف تفتح الأسوار..

— هكذا.. وهرول أبوعوف.. ضرب رأسه في صخرة قائمة على الطريق.. وصرخ: هكذا.

وتعانقت ضحكاتهم في فرح غامر. كبير.. حي.

— أما أبوعوف.. دا شيطان.

— خلاص.. إحنا عاوزين حكايات.

— السيل والبحر؟

— لا.. الظلام والجن أحسن.

— حكايتي الأولى.

— حكايتي الأولى.

أبوعوف يمد خطاه الواسعة.. عيون الصغار تطارده.. لحق به البعض.. سبقه آخرون.. آخرون.. وآخرون نثروا على الطريق أفكاراً صغيرة.. انشغل طفل بمطاردة حمل أبيض.. لحقت فاطمة بأمها.. وقف أبوعوف.. سحب على أصدقائه نظره.. جلس.. التفوا حوله.. استلقى.. توسد يده..

— يا الله أحكي.

— واحد، اثنين، ثلاثة.

— أبوس ايدك يا (أبوعوف)

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان طفل.. طفل مثل الزهرة الحلوة التي بجانب الساقية هناك.. يحب النزهة بين النخيل والحشائش الخضراء، يغني ويحفظ المواويل.. طفل عقله كبير.. الناس يحبونه.. و يقابلونه.. ويحدثونه.. أخلاقه أخلاق الرجال.. أفعاله أفعال الأبطال.

وصمت أبوعوف.. اندس عقله بين الخطوات الأولى لمسيرة قافلة كبيرة تاهت في الصحراء.. حاصرتها الكثبان.. نامت في أحضان الموت..

— أكمل الحكاية..

— الله يخليك..

شاهد الطفل في المدينة عمارة بيضاء فقال لأبيه.. أنا سأبني لك عمارة بيضاء، خضراء، حمراء، صفراء لوتعلمني يا بوي.. وشاهد مرة في السماء طائرة، فقال لأبيه: أنا سأصنع لك طائرة كبيرة ومتوسطة، وصغيرة لو تعلمني يابوي..

رد عليه أبوه: من يرعى الغنم؟ من يسقي الزرع..؟ تألم الطفل لكنه لا يستطيع أن يعصي أمر أبيه.. ذهب إلى النخلة الكبيرة وجلس يبكي.. يبكي.. يبكي.. خبط يده الصغيرة على جذع النخلة الكبير.. نظر فوق.. كانت النخلة طويلة.. طويلة.. لاحظ جريدها الأخضر يلعب ويرقص. فكر.. وفكر.. كان يريد أن يقول شعراً..

وصمت أبوعوف.. ملايين العيون مغروزة في الكون العريض.. قطع الزجاج الحاد مفروشة على الطرقات.. السيول تغرف الأماني وتصبها في بطون الحيتان..

ظلام الليل يعري الجريمة من الخوف.. أحياناً كثيرة تنسلخ الأسباب من النتائج.. مجنون.. مجنون..!

— أكمل الحكاية.

— الله يخليك..

رجع الطفل للبيت مهموماً.. لا يستطيع أن يبني عمارة، ولا يصنع طائرة ولا يقول شعراً.. قال لنفسه: «لو أدخل المدرسة لتعلمت أشياء كثيرة.. لكن كيف؟ أبوي يرفض لو كانت أمي حية.. ماذا كنت ستفعل..؟ لكن أمي ماتت..!

وصمت أبوعوف.. الكوخ القائم هناك ينشد السلام.. الصخور المسمرة في الجبل تنتظر هبات النسيم الباردة.. شجرة الأثل العجوز تمد الظل في إيثار.. وطاف المكان بعينيه يتحسس أحلامه، يوقظ مأساته النائمة.. يجلد أطرافه المتخاذلة..

يهم لحظة بالحياة.. مجنون.. مجنون..!

— أكمل الحكاية..

— الله يخليك.

(دعته أخته لتناول عشائه، لم يسمعها.. كان يفكر.. أفكاره تجري كالسيل.. مالك يا خوي؟

سألته.. غلبه البكاء وخرج من البيت مسرعاً يواري دموعه الكبيرة كحبات المطر.. ومرت الأيام..!

وصمت أبوعوف.. الكلمات هشة..

الرؤوس صغيرة.. الدم يتحول إلى حليب.. اللؤلؤ هناك.

هناك.. في أعماق البحر.. حظها وحده قادر على أن يسلبها أمنها..

مجنون..

مجنون..؟

— أكمل الحكاية..

— الله يخليك..

(ومرت الأيام.. كان الطفل يجوب الصحاري.. يطوف بالمزارع.. أصبح مجنوناً.. مجنوناً كبيراً..)

— دي حكاية مش حلوة.

— حكاية السيل والبحر أحسن..

— لا.. حكاية الظلام والجن أحسن..!

— أنا عاوز أروح البيت.

فم الليل يتسع.. الظلام يفترش الحشائش.. قلوب تتوسد العذاب.. ريح مشلولة.. توقظ الوحشة..

ما أصعب أن تفتح الخزائن..!

وأصعب من فتحها جردها..

ترى هل هذه قصة كاملة..؟

أيمكن أن نعلب البحر..؟

أوه.. الحكاية طويلة.. السيل ينتزع أمن الأرض.. البحر يغدر بأحلام الصيادين.. الظلام يبتلع النور.. يحرر الأشباح.

— أنا عاوز أروح البيت..

— وأنا لازم أذاكر دروسي.

— ياه.. أنا نسيت.. دي الليلة الحلقة الأخيرة من مسلسل «أيام من الماضي».

— هيا وصلنا يا أبا عوف..

قريتي ولدت معي.. رضعنا المطر معاً.. مشت معي.. أحببتها.. نمت على يدها حلمنا حلماً طويلاً هي أنا.. وأنا هي.. لا تغرنا الموانىء.. لا تخيفنا الصحاري.

ما أقواني..!

هذه سواعدي ما زالت مفتولة.. قدماي كالصخر..

قريتي ولدت معي.. رضعنا المطر معاً..

كيف سبقتني.. كيف..؟

وتنكرت لي.. كيف.. كيف..؟

— أنا عاوز أروح البيت.

— أنا لازم أذاكر دروسي..

— دي الليلة الحلقة الأخيرة من المسلسل..

— هيا وصلنا يا أبا عوف..

ووقفوا.. وتطلعوا هنا.. وهناك..

كل شيء يوحي بأن المهمة قد انتهت..

ركلوه.. هيا.. هيا..

— هل تحبون قريتكم..؟

— عاوز ينها مدينة كبيرة.

— وبأي شيء تحلم المدينة..؟

— تحلم بعمائر بيضاء وخضراء.. ومصنع ومطار دولي..

— هذه أحلام مسروقة..

— مسروقة..؟!

— نعم.. هذه أحلامي.

— أما أنت مجنون بصحيح.

صمت أبو عوف..

أحس بالضيق..

مخالب حادة تشرخ ظهره.. نصل يفترسه.. قدمه على حافة المنحدر.. رأسه مضغوط بين صخرتين..

قفز.. ركض.. صرخ.. لا.. لا.. أنا لست مجنوناً..

صدقوني.. عصر قلوب الصغار.. رشّهم بالرعب.. فزعوا.. تطاير الصياح.. هرع الناس.. ما الذي يجري..؟ أبو عوف.. ما بال أبي عوف..؟

أمسكوه..

اهدأ يا أبا عوف.. مالك..؟

أنا لست مجنوناً..

— من قال إنك مجنون.. سلامتك..

— من أنتم..؟ ماذا تر يدون مني..؟

— نحن أهلك..

— لكنني مجنون..

انفرط عقد ضحكات كبيرة.. أضيء الليل..

أدار أبو عوف عينيه..

رفع يده..

تأكد أنه لا يزال حيًّا..

ابتسم.. ضحك: (احك لنا يا أبا عوف)..

٢٢ شعبان ١٤٠١هـ

الفهرست



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمـأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفـة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي

العنوان	النوع	المؤلف
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا.. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير		الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

تحت الطبع :

العنوان	المؤلف
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• هكذا علمني وردزورث	الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري

العنوان	النوع	المؤلف
● عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مشواري مع الكلمة		الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
● وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● لن تلحد		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
● الإسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
● قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● أيـامي..		الأستاذ أحمد السباعي
● ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
● مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
● دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
● من حديث الكتب		الأستاذ محمد سعيد العامودي .
● الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري
● ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● وحي الصحراء		الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
● لجام الأقلام		الشيخ أبو تراب الظاهري
● أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
● قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
● إليهـا	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
● حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
● غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
● أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
● نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
● شيء من حصاد		الأستاذ حامد مطاوع

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية		الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	(باللغة الانجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة		الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء	(دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال		الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• مشكلات الطفولة		الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور	(ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الانجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع :

الكتاب		المؤلف
• الأدب المقارن	(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن		الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد

مطبوعات تهامة
TIHAMA PUBLICATIONS

صدر منها:

العنوان		المؤلف
• حارس الفندق القديم		الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي		الأستاذة نوال قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
• تسـالي		الدكتور حسن يوسف نصيف
• مجلة الأحكام الشرعية		الشيخ أحمد بن عبد الله القاري
	(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان
		الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي

تحت الطبع:

العنوان		المؤلف
• الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
• ملامح وأفكار مضيئة		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
- القرآن.. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- أدباؤنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي بركات

رسائل جامعية

صدر منها:

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- القصة فى أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي

تحت الطبع:

- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتّى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الأستاذ صدقة يحي فاضل
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها:

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع:

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة ـ الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

- القرد..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Bahha Bin Hussain Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia

المطبعة العربية Arabian Printers
تليفون ٦٧١٧٦٧٧ – جدة